الباب الخامس

سفنرولا والجمهورية

١٤٩٢ – ١٥٣٤

الفصل الأول

النبي

إن الذى يمتاز به الحكم الوراثى هو الاستمرار ، أما نقمته فهى أنه يؤول إلى من لا يعلون على المستوى الأوسط من الحكام ، ومصداق ذلك أن پيرو دى لورندسو Piero di Lorenzo خلف أباه فى سلطانه دون عناء ، ولكن سوء خلقه وخطأ أحكامه أفقداه حب الشعب وهو الحب الذي كان يقوم عليه حكم آل ميديتشى : فقد كان الرجل حاد الطبع سريع الغضب، متوسط الذكاء ، مزعزع الإرادة ، حسن النية إلى درجة تدعو إلى الإعجاب. وقد جرى على سنة آل ميديتشى من السخاء على الفنانين ورجال الأدب ، ولكنه كان فى ذلك أقل بصيرة وكياسة من أبيه . وكان قوى البنية ، بارعاً فى الرياضة ، اشترك فى المباريات الرياضية وظهر فيها أكثر مما ترى فلورنس. أنه يليق برئيس دولة معرضة للأخطار . وكان من المحن الكثيرة التى لازمته. أن مشروعات لورندسو وإسرافه قد أفقرا خزانة المدينة ، وأن منافسة المنسوجات البريطانية كانت تنشر الكساد الاقتصادى فى فلونس ، وأن زوجة پيرو الأرسينية كانت تشمخ بأنفها الرومانى على الفلورنسيين وترميهم بأنهم أمة من أرباب الحوانيت ، وأن الفرع الآخر من أسرة ميديتشى

المنحدر من لورندسو « الأكبر » بدأ يتحدى أبناء كوزيمو وأحفاده ، وتزعم حزباً تولى المعارضة باسم الحرية . وكان شر ما منى به پيرو من تعاسة أنه معاصراً لشارل الثامن ملك فرنسا الذى غزا إيطاليا ، ولسڤنرولا الذى كان يريد استبدال المسيح بالميديتشيين ، ولم يكن پيروقد خلق ليتحمل هذه الأعباء الثقال .

وانتقلت أسرة سڤنرولا من بدوا إلى فرارا حوالى عام ١٤٤٠ وذلك حين دعا نقولو الثالث د، ست Niccolo III d'Este ميشيل سڤنرولا ليكون طبيب بلاطه . وكان ميشيل هذا رجلا نقياً قل أن يوجد مثله فى الأطباء ، وكان كثيراً ما يلوم أهل فرارا لأنهم يفضلون القصص الغرامية على الدين[1] . وكان ابنه نقولو متوسط القدرة فى الطب ، ولكن إلينا بوناكسى Elena Bonacossi زوجة نقولو كانت امرأة قوية الأخلاق ذات مثل عليا سامية ؛ وكان چيرولاما ثالث أبنائهما السبعة ، وأعداه هو أيضاً لدراسة الطب ، ولكنه رأى أن تومس أكوناس أكثر إمتاعاً من التشريح ، وأن انفراده بكتبه ألذ من عبث الشباب . وراعه ألا يجد فى جامعة فيرونا « مالياً » بلغ من الفقر درجة تحمله على أن يجل الفضيلة » . وكتب يقول : « إذا شئت أن تكون رجلا فى هذا المكان ، فعليك أن تلوث فمك بأقذر ألفاظ التجديف ، وأكثرها حيوانية ، وأشدها فظاعة . . . وإذا درست الفلسفة والفنون الطيبة كنت فى نظرهم حالما ، وإذا عشت عفيفاً متواضعاً ، فأنت أبله ؛ وإذا كنت تقياً ، فأنت منافق ؛ وإذا آمنت بالله فأنت مغفل »[2] . ولهذا ترك المدرسة وعاد إلى والدته وإلى العزلة ؛ وأضحى رجلا ذا وجدان سليم يشعر بنقائصه ، وينغص عليه حياته تفكيره فى الجحيم وفى خطايا بنى الإنسان . وكانت أولى كتاباته المعروفة قصيدة يندد فيها برذائل إيطاليا وفيها البابوات أنفسهم ، وينذر نفسه لإصلاح بلده وكنيسته . وكان يقضى الساعات الطوال فى الصلاة والدعاء ، وطال صيامه حتى حزن أبواه مما

أصابه من نزال . ؛ وحدث فى عام ١٤٧٤ أن اشتدت تقواه عن ذى قبل بعد أن استمع إلى العظات التى كان يلقيها الراهب ميشيل Fra Michele أيام الصوم الكبير ، وسره أن يرى كثيرين من أهل فرارا يأتون بأقنعتهم ، وشعرهم المستعار ، وأوراق اللعب ، والصور البذيئة ، وغيرها من متاع الدنيا ليلقوها على كومة حريق فى ميدان السوق . وبعد عام من ذلك الوقت هرب خلسة من بيته ، وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، ودخل ديراً للبندكتيين فى بولونيا .

وكتب رسالة رقيقة إلى أبويه يرجوهما أن يغفرا له أنه خيب ما كانا يرجوان له من رقى فى الشئون الدنيوية ؛ ولما أن ألحا عليه بالعودة رد عليهما مغضباً : « أيها الأعميان ! لماذا تداومان على البكاء والأسى ؟ إنكما تزعجانى وإن كان عليكما أن تبتهجا . . . . وليس لى ما أقوله إذا داومتما على هذا الحزن إلا أنكما ألد أعدائى وأعداء الفضيلة ؟ فإن كان ذلك ، قلت لكما : كونوا كلكم دونى ، يا من ترتكبون الإثم »(٣) . وأقام فى دير بولونيا ست سنين ؛ وكان فى خلالها يطالب فى عزة وفخر أن يعهد إليه بأحقر الأعمال ، ولكن موهبته الخطابية تكشفت فى أثناء هذه المدة ، وعهد إليه بالخطابة ؛ ثم نقل إلى سان ماركو فى فلورنس عام ١٤٨١ ، وكلف بالخطابة فى كنيسة سان لورندسو ؛ لكن مواعظه فيها لم ترق الجماهير ؛ لأنها كانت ممتعة فى الناحية النظرية والتلقينية أكثر مما تطيقه مدينة عرفت بلاغة الكتاب الإنسانيين وأسلوبهم المصقول ؛ فأخذ من يستمعون إلى عظاته يقل عديدهم أسبوعاً بعد أسبوع ؛ فما كان من رئيس الدير إلا أن خصه بتعليم المستجدين .

وأكبر الظن أن السنين الخمس التالية هى التى تكونت فيها أخلاقه واتخذت صورتها النهائية . ولما ازدادت مشاعره وأغراضه قوة ظهرت آثارها على ملامحه ، فتغضنت جبهته وتجهمت ، وانقبضت شفتاه الغليظتان تنمان عن قوة العزيمة ، وانحنى أنفه الضخم إلى الخارج كأنما كان يريد أن يحيط

بالعالم أجمع ، ولبدا وجهه مكتئباً قاسياً ، ينم عن قدرة لا حد لها على الحب والكره ، وجسمه الضئيل تحطمه وتنتابه الرؤى ، والآمال الخائبة ، والأعاصير الداخلية المستبطنة ؛ وكتب وقتئذ لأبويه يقول : « لا زلت لحما وداً مثلكما ؛ ولا زالت حواسى مستعصية غير خاضعة لعقلى ، ولهذا كان لابد لى أن أناضل بقسوة كى أمنع الشيطان أن يقفز على ظهرى »(٤) . وعمد إلى السوط وجلد نفسه كى يذلل ما بدا له إنه الفساد المتأصل فى الطبيعة البشرية . وإذا كان قد جسد وساوس الجسم والكبرياء فجعلها أصوات الشيطان ، فإنه لم يكن أقل من ذلك استعداداً لأن يجسد نصائح نفسه الخيرة وتحذيراتها . وهام وهو بمفرده فى صومعته يعلى من شأن وحدته بأن يصور نفسه كأنه ميدان تصطرع فيه الأرواح التى تحوم حوله ليظفر منها الخبيث أو الطيب ، وخيل إليه آخر الأمر أن الملائكة وكبارهم يتحدثون إليه ، وأخذ ألفاظهم على أنها وحى إلهى ، وقام فجاءة يتحدث إلى العالم كأنه نبى اختير ليكون رسولا من عند الله ، وآمن أشد الإيمان بالرؤى غير المعترف بها والمعزوة إلى الرسول يوحنا ، وورث فلسفة الأخرويات عن يواقيم الفلورى Joachiem of Flora الصوفى ، وقال كما قال يواقيم إن عهد المسيح الدجال قد أقبل ، وإن الشيطان قد استحوذ على العالم ، وأن المسيح سيظهر بعد قليل ليبدأ حكمه فى الأرض ، وأن الانتقام الإلهى سيحل بالطغاة ، والزانين ، والكافرين ممن خيل إليهم أنهم يسيطرون على إيطاليا

ولما أن أرسله رئيس ديره ليخطب فى لمبارديا (١٤٨٦) تنحى سفنرولا عن أسلوبه التعليمى الذى كان يصطنعه فى شبابه ، وصاغ عظاته فى صورة التشهير بالرذائل الخلقية ، والتنبؤ بيوم الدينونة ، والدعوة إلى التوبة . وأصغى إليه آلاف ممن لم يكونوا يستطيعون تتبع حججه الأولى ، وأخذوا يستمعون فى وجل إلى البلاغة الجديدة الثائرة القوية التى ينطق بها رجل خيل إليهم أنه يتحدث عن يقين وتأييد إلهى : وسمع بيكو دلا مرندولا بما أوتيه

للراهب من نجاح ، واستأذن لورندسو فى أن يعرض على رئيس الدير أنه يأمر بعودة سفنرولا إلى فلورنس . وعاد سفنرلا فعلا ؛ (١٤٨٩) ، واختير بعد عامين رئيساً لدير سان ماركو ؛ ووجد فيه لورندسو عدوا أصرح وأقوى من أى عدو آخر اعترض سبيله .

ودهشت فلورنس إذ رأت أن الواعظ الأصحم الذى كان من قبل يبعث اليأس بحججه فى قلوبهم ، قد أخذ الآن يروعهم بالرؤى والخيالات الدينية ، ويستحوذ على قلوبهم بالأوصاف الحية القوية التى يصور بها الوثنية ، والفساد ، والرذائل المتفشية بين جيرانهم ، ويسمو بأرواحهم إلى مرائى التوبة والأمل ، ويبعث فى نفوسهم من جديد قوة الإيمان التى كانت تلهمهم وتروعهم أيام شبابهم :

« يا أيتها النساء يا من تختلن بزينتكن ، وشعركن ، وأيديكن ، أقول لكن إنكن جميعاً قبيحات ، فهل تردن أن ترين الجمال الحق ؟ انظرن إلى الرجل التقى أو المرأة التقية ، حيث تسيطر الروح على المادة ؛ انظرن إليه وهو يصلى ، وحين يتلألأ عليه شعاع من الجمال الربانى ساعة يختتم صلواته ؛ سترين وقتئذ جمال الله يتلألأ فى وجهه ، فتبصرنه كأنه وجه ملاك »(٥) .

وذهل الناس من شجاعته ، فقد كان تنديده بالقساوسة والبابوية أشد من تنديده بغير رجال الدين ، وكانت قسوته على الأمراء أشد منها على الشعب ، وسرى فى قلوب الفقراء تيار قوى من التطرف ؛ انظر إلى قوله :

لا يوجد فى هذه الأيام شىء من نعم الروح القدسى أو هباته لايستطاع شراؤه أو بيعه . أما الفقراء فقد أبهظت كاهلهم الأعباء الثقال ، وإذا ما دعوا لأداء مبالغ من المال فوق طاقتهم ، صاح الأغنياء فى وجوههم قائلين : « أعطونا ما بقى لديكم » . ومن الناس من لا يزيد دخلهم على خمسين « فلورينا فى العام) ، ثم يؤدون ضرائب عن مائة ، على حين أن الأغنياء لايؤدون إلا القليل ، لأن الضرائب قد نظمت على هواهم . ألا فتفكروا

جيداً أيها الأغنياء ، لأن العذاب سوف يحل بكم . ولن نسمى هذه المدينة بعد اليوم فلورنس ، بل ستكون معششاً للصوص ، وللدناءة ، وسفك الدماء . فإذا جاء هـــذا الوقت حلت بكم الفاقة . . . وانقلب اسمكم ، أيها القساوسة فصار هو الرعب(٦) .

ثم يأتى بعد القساوسة دور رجال المصارف :

لقـــد ابتدعتم وسائل كثيرة تجمعون بها المال ، وتجرون بها عمليات كثيرة من التبادل تقولون إنها مشروعة ، ولكنها أبعد ما تكون عن العدالة ، وقد أفسدتم بأعمالكم مناصب المدينة وكبار حكامها . ليس فى مقدور أحد أن يقنعكم بأن الربا إثم ، ولذلك نراكم تدافعون عنه وتعرضون نفوسكم للهلاك ؛ وليس فيكم من يستحى من إقراض المال بالربا ، بل إن من يفعلون غير فعالكم يرمون بالبلاهة والغفلة . . . . إن وجوهكم هى وجوه العاهرات قد نضب منها ماء الحياة ، فأنتم تقولون إن الحياة الطيبة السارة هى حياة الكسب ، والمسيح يقول :

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .

ثم يوجه كلمة إلى لورندسو فيقول(٧) :

إن الطغاة لا يمكن تقويمهم ، لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون الملق ، ولن يردوا مكاسبهم الحرام . . . وهم لايستمعون إلى نداء الفقراء ، ولا يلومون الأغنياء ؛ . . ويفسدون أخلاق الناخبين ، ويكلون جباية الضرائب إلى الملتزمين ليبهظوا بذلك كاهل الأهلين(٨) ؛ . . وقد جرت عادة الطاغية أن يشغل الناس بالمعارض والأعياد حتى ينصرفوا عن التفكير فى أعماله إلى التفكير فى ملاهيهم ، فينشأوا غير ملمين بسير أمور الدولة ، ويتركوا أزمة الحكم فى يديه(٩) .

وهو لا يرى أن ذلك الطغيان مما يستطاع تبريره بحجة أنه المال ينفق على الآداب والفنون . ذلك أن سفنرولا يقول إن الآداب والفنون من أعمال الوثنيين ؛ وإن قول الإنسانيين إنهم مسيحيون محض اختلاق ، وإن أولئك

المؤلفين الأقدمين الذين يجدُّون هم فى الكشف عن آثارهم ونشرها والثناء عليها غرباء عن المسيح وعن الفضائل المسيحية ، وليس فنهم إلا وثنية وعبادة لآلهة الكفار ، أو إنها عرض فاجر للعرايا من النساء والرجال .

واضطرب لورندسو لهذا . لقد كان جده هو الذى أنشأ دير سان ماركو وأغناه ، وكان هو نفسه قد حباه بالمال الكثير ؛ وبدا له أن مما لا يقبله العقل أن يقوم راهب فيقضى من فوق منبر ذلك البيت المقدس الذى أنشأه آل ميديتشى على ذلك التأييد الشعبى الذى قام على أساسه سلطان أسرته ، مع أن هذا الراهب لا يكاد يعرف شيئاً عن صعاب الحكم ؛ ويقدس تلك الحرية التى لم تكن فى حقيقتها إلا حرية الأقوياء فى استغلال الضعفاء بلا وازع من سلطان القانون . وحاول لورندسو أن يسترضى الراهب ، فجاء إلى دير سان ماركو ليحضر القداس ، ونفح الدير بهبات سخية ، ولكن سفنرولا ازدراه وسخر منه ، وقال فى عظة له بعد ذلك إن الكلب الأمين لا يكف عن النباح دفاعاً عن صاحبه إذا ما ألقى إليه عظم . ولما وجد فى صندوق الصدقات قدراً كبيراً من الذهب على خلاف المعتاد ظن أنه جاء من لورندسو ، فوهبه إلى دير آخر وقال إن الفضة تفى بحاجات إخوانه الرهبان . وبعث إليه لورندسو خمسة من زعماء المدينة ليحاولوا إقناعه بأن عظاته النارية ستؤدى إلى العنف الذى لا طائل من ورائه ، وأنها قد أخذت تخل بالنظام وتهدد الأمن والسلام فى فلورنس . ورد عليهم سفنرولا بأن عليهم أن يأمروا لورندسو بأن يكفر عن سيآته ، وأغرى راهب فرنسيسى اشتهر ببلاغته أن يلقى عظات شعبية يهدف بها إلى إبعاد المستمعين من الرهبان الدمنيكيين عن سفنرولا ؛ ولكن هذا الراهب أخفق فى مهمته ، وهرعت إلى سان ماركو جماعات أكبر مما كان يهرع إليه من قبل ، حتى لم تعد كنيسة الدير تتسع للمستمعين . ونقل سفنرولا منبره إلى الكنيسة الكبرى ليلقى فيها عظاته فى موسم الصوم الكبير من عام ١٤٩١ ؛ وكان هذا الصرح يزدحم بالحاضرين كلما أعلن أن الراهب سيخطب فيه ، مع أنه قد أنشئ لكى

سع أهل مدينة بأكملها . ولم يحاول لورندسو بعدئذ ، وكان يقاسى آلام المرض ، أن يتدخل فى عظاته .

وكان ضعف بيرو بعد موت والده لورندسو سبباً فى أن أصبح سفنرولا أكبر قوة فى فلورنس ؛ ووافق البابا الجديد إسكندر السادس على كره على انفصال ديره عن المجموعة اللمباردية (من أديرة الدمنيك) التى كان هذا الدير جزءاً منها ؛ وبهذا نصب سفنرولا نفسه من الوجهة العملية رئيساً مستقلا لأهل ديره . فلما تم له ذلك أصلح نظمه ، ورفع مستوى الرهبان الخاضعين لحكمه من الناحيتين الخلقية والعقلية ؛ فانضم إلى جماعته رهبان جدد ، وأحاطه أعضاء الدير البالغ عددهم ٢٥٠ عضواً بالحب والإخلاص اللذين كانا عوناً قوياً له فى جميع ظروف حياته ما عدا محنته الأخيرة . وأصبح سفنرولا من أجل ذلك أشد جرأة فيما يوجهه من نقد للفساد الشائع وقتئذ بين رجال الدنيا والدين على السواء . لكنه ورث على غير علم منه آراء الملحدين الولدنسيين Waldensian والبتارين Patarine المعارضة لآراء الكنيسة ؛ وكانت هاتان الطائفتان لا تزالان تكمنان فى أماكن مختلفة من شمالى إيطاليا ووسط أوربا ، فأخذ يندد بالثراء الدنيوى الذى يستمتع به رجال الدين ، وبما يتجلى فى الحفلات الكنسية من أبهة وفخامة ، ويشنع على « الأحبار الكبار الذين يضعون على رءوسهم تيجاناً فخمة من الذهب والحجارة الكريمة . . . وعلى ملابسهم الجميلة وأوشحتهم المنسوجة من الديباج المقصب » . وأخذ يقارن هذا بما كان عليه رجال الكنيسة الأولون من بساطة ، ويقول إن هؤلاء « لم تكن لهم تيجان ذهبية وأقداح قربان إلا أقل من القليل ؛ وذلك لأن القليل الذى كانوا يملكونه منها قد تحطم ليسد حاجة الفقراء والمعوزين . أما أحبارنا فإنهم ينهبون من الفقراء ما لا يملكون سواه ليقيموا به أودهم ، ليحصلوا هم به على أقداحهم »(١٠) . وكان يضيف إلى هذا التشهير نبوءات بسوء المصير ؛ وكان قد تنبأ بأن لورندسو وإنوسنت

الثامن سيموتان فى عام ١٤٩٢ ، ومات كلاهما فى ذلك العام بالفعل ؛ ثم تنبأ فى هذا الوقت الذى تتحدث عنه أن الله سيرسل على إيطاليا كارثة مدلهمة ينتقم بها لذنوبها وآثام طغاتها ورجال الدين فيها ، فإذا انقضت هذه الكارثة فإن المسيح سوف يقود الأمة فى سبيل الإصلاح المجيد ، وأنه هو نفسه ، سفنرولا ، سيموت موتاً عنيفاً . ثم تنبأ فى بداية عام ١٤٩٤ أن شارل الثامن سيغزو إيطاليا ، ورحب هو بهذا الغزو ووصفه بأنه يد الله المطهِّرة . ويقول أحد معاصرية إن ما كان يلقيه وقتئذ من عظات كانت « مليئة بالإرهاب ، والفزع ، والصراخ والعويل ، إلى حد جعل كل من سمعها يطوف بالمدينة ذاهلاً ، صامتا شبيها بالأموات »(١١) .

وتحققت نبوءة سفنرولا ، فعبر شارل الثامن جبال الأپنين فى عام ١٤٩٤ وانقض على إيطاليا يعتزم ضم مملكة ناپلى إلى التاج الفرنسى ، ودخل أملاك فلورنس فى شهر أكتوبر من ذلك العام وحاصر حصن ساردسانا Sarzana ؛ وظن پيرو أنه يستطيع إنقاذ فلورنس من فرنسا ؛ كما أنقذها والده من ناپلى ، بالذهاب بنفسه إلى عدوه . فقابل شارل فى ساردسانا وأجابه إلى كل ما طلب : فسلمت إلى الفرنسيين پيزا وليغورن Leghorn ، وجميع ما لفلورنس من حصون فى الغرب على أن تبقى فى أيديهم طوال أيام الحرب ، ورضى أن تقدم فلورنس مائتى ألف فلورين (٥٠٠ر٠٠٠ر دولار أمريكى) تساعد بها على تمويل حملة شارل(١٢) : فلما وصل نبأ هذا التسليم إلى فلورنس ارتاعت له حكومة المدينة ومجلسها ، ولم يكونوا قد استشيروا من قبل فى أمر هذه المفاوضات بعكس ما حدث من قبل فى أيام لورندسو . وقرر مجلس حكام فلورنس بزعامة المعارضين لپيرو من آل ميديتشى أن يخلعوه ويعيدوا الجمهورية القديمة ؛ فلما عاد پيرو من ساردسانا وجد أبواب قصر ڤيتشيو مغلقة فى وجهه ، وأخذ الناس يهزءون به وهو فى طريقه إلى منزله ، والصبية يقذفونه بالحجارة . وخشى پيرو الاعتداء على حياته

ففر هو وأسرته وإخوته من المدينة ، ونهب العامة قصر آل ميديتشي وحدائقهم ، وبيوت عمال پيرو على أمواله ؛ ونهبت المجموعات الفنية التي قضى آل ميديتشي فى جمعها أربعة أجيال ، وبعثرت ، وباعت الحكومة ما بقى منها فى مزاد علنى . وعرض مجلس حكام فلورنس مكافأة قدرها خمسة آلاف فلورين لمن يأتيهم بپيرو والكردنال چيوڤنى ده ميديتشي على قيد الحياة ، وألفين لمن يأتى بهما ميتين . وأرسلت خمسة رجال ، من بينهم سڤنرولا ، إلى شارل فى پيزا يطلبون إليه شروطاً للصلح أخف وطأة من الشروط السالفة الذكر ، وقابلهم شارل بمجاملة سلبية ، فلما غادر الوفد پيزا نزع أهلها شارات الأسد والسوسن وهى شعار پيزا عن منازلهم ونادو باستقلالهم . ودخل شارل فلورنس ، ورضى بأن يدخل تعديلا طفيفاً على مطالبه ؛ ودفعه حرصه على الوصول إلى نابلى إلى أن يتجه بجيشه نحو الجنوب ، وشرعت فلورنس وقتئذ تقوم بتجربة فى الدمقراطية تعد من أروع التجارب فى التاريخ :

الفصل الثانى

سفنرولا الحاكم

دعى أهل فلورنس فى اليوم الثانى من ديسمبر عام ١٤٩٤ إلى برلمان Parlamento ، دعاهم إليه الناقوس العظيم المعلق فى برج قصر فيتشيو ، وطلب إليهم مجلس السيادة أن يخولوه سلطة ترشيح عشرين من رجالها ، يعينون هم مجلس سيادة جديد ورؤساء جدداً للموظفين ، وأن يحتفظ هذا المجلس وأولئك الموظفون بمناصبهم عاماً واحداً ، تملأ بعده جميع المناصب بطريق القرعة من سجل يحتوى أسماء الذكور المتمتعين بالحقوق السياسية والبالغ عددهم قرابة ثلاثة آلاف . ووافق البرلمان على أن يعهد بهذه السلطة إلى مجلس السيادة القديم . وحل « العشرون » المجالس والهيئات التى كانت تنظر فى الشئون العامة وتديرها أيام آل ميديتشى ، ووزعوا المناصب المختلفة على أنفسهم ، ولكنهم لم يكونوا ذوى خبرة ودراية بهذه الأعمال ، وقامت بينهم التحزبات للأسر فرقتهم تمزيقاً ، وانهارت الأداة الحكومية الجديدة ، وأوشكت الفوضى أن تضرب أطنابها فى المدينة ، وشرع دبيب الكساد يدب فى التجارة والصناعة ، وتعطل الناس ، واحتشدت الجموع الغاضبة فى الشوارع ، وأقنع پيرو كپونى Pero Caponi « العشرين » أن لا سبيل إلى عودة النظام إلا إذا دعى سفنرولا إلى مجالسهم .

واستدعاهم الراهب إلى ديره ، وعرض عليهم منهاجاً طموحاً من التشريعات السياسية ، والاقتصـــادية ، والخلقية . ووضع « العشرون » بزعامته وزعامة پيترو سديرينى Pietro Soderine دستوراً جديداً اتخذوا بعض مبادئه من الدستور الذى نجح أيما نجاح فى استقرار الحكم فى البندقية وينص هذا الدستور على إنشاء مجلس أعلى Maggior Consiglio يتكون

من رجال تولوا هم أو أسلافهم من الأجيال الثلاثة السابقة ـ مناصب كبيرة في الدولة ، على أن يختار هؤلاء الأعضاء الأولون ثمانية وعشرين عضواً آخر ينضمون إليهم في كل عام . أما الهيئة التنفيذية للحكومة فتبقى في جوهرها كما كانت في أيام آل ميديتشي : مجلس للسيادة مكون من ثمانية رؤساء وحامل الشعار ، يختارهم المجلس الأعلى لمدة شهرين ، ومن عدة لجان ـ لجنة الأثنى عشر ، والستة عشر ، والعشرة والثمانية ـ مهمتها تصريف الشئون الإدارية ، وشئون الضرائب والحرب . وأجل إنشاء الدمقراطية الكاملة بحجة أنهـا نظام غير عملي في مجتمع لا تزال كثرته من الأميين ، يندفعون وراء العواطف والانفعالات ؛ ولكن المجلس الأعلى الذي يكاد أعضاؤه يبلغون ثلاثة آلاف عضو كان يعتبر هيئة نباتية : وإذ لم يكن في قصر ڤيتشيو حجرة تتسع لهذه الجمعية الضخمة ، فقد كلف سيمون پلايولو ـ ال كروناكا Simone Palaiuolo - Il Cronaca ـ بأن يعيد تخطيط جزء من داخل القصر ليجعل منه قاعة الخمسمائة Sala dei Cinquecento يتسع لعقد جلسات المجلس مجزءاً . وقد كلف ليوناردو دا ڤنتشي وميكل أنچيلو بعد ثمان سنين من ذلك الوقت أن ينقشا الجدران المتقابلة متنافسين تنافسا ذائع الصيت في التاريخ . ورحبت الجماهير بهذا الدستور المقترح ترحيباً كان الفضل فيه لنفوذ سڤنروا ، وشرعت الجمهورية الجديدة تباشر أعمالها في اليوم العاشر من شهر يونية سنة ١٤٩٥ .

وبدأت أعمالها بداية طيبة ، فأصدرت عفواً عاماً عن جميع المؤيدين لحكم آل ميديتشي الزائل ، ودلت على كرمها المنبعث عن احترامها لنفسها بأن ألغت جميع الضرائب عدا ضريبة قدرها عشرة في المائة من دخل الأملاك العقارية ، وبذلك أعفى التجار الذين كانوا يسيطرون على الأعمـال التجارية من الضرائب ، وألقوا العبء كله على الأرستقراطية المالكة للأرض ، وعلى الفقراء المنتفعين بها . ثم أنشأت الحكومة بإيعاز سڤنرولا

مكتبا للقروض monte dè pieta يقرض المال بفائدة قدرها خمسة فى المائة ؛ وبذلك أنجت الفقراء من الاعتماد على المرابين الذين كانوا يتقاضون فوائد تبلغ أحياناً ثلاثين فى المائة . ثم حاول المجلس بتحريض الراهب أيضاً أن يصلح الأخلاق والقوانين : فحرم سباق الخيل ، والأغانى البذيئة فى الحفلات التنكرية ، وانتهاك الحرمات ، والميسر ؛ وشجع الخدم على أن يبلغوا عن أسيادهم إذا قامروا ؛ وكان من يحكم عليهم من المذنبين يعذبون ؛ كما كان المجدفون يعاقبون بخرق ألسنتهم ، ومن يرتكبون اللواط يلقون من العقوبات الشديدة مايزرى بهم . ونظم سفنرولا الغلمان من جماعته فى شرطة أخلاقية مهمتها المساعدة على تنفيذ هذه الإصلاحات . وتعهد هؤلاء الغلمان بأن يداوموا على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام ، ويتجنبوا مشاهدة السباق ، والاستعراضات ، والألعاب البهلوانية ، وصحبة الأرذال الفاسدين ، والاطلاع على الأدب البذىء ، ومشاهدة الرقص ، ومدارس الموسيقى ، كما تعهدوا بتقصير شعر الرأس . وكانت « عصب الأمل » هذه تجوب الشوارع تطلب الصدقات للكنيسة : ونشئت الجماعات التى تحتشد للعب الميسر ، وتنتزع من أجسام النساء ما ترى أنه غير لائق من الثياب .

وارتضت المدينة هـــذه الإصلاحات إلى حين ، وأيدتها بعض النساء تأييداً حماسياً ، وسلكن مسلكاً مرضياً ، ولبسن ثياباً بسيطة ، وخلعن الحلى ؛ وبدلت الثورة الأخلاقية فلورنسة آل ميديتشى المرحة تبديلا ، وأخذ الأهلون يتغنون فى الشوارع بالترانيم الدينية بدل الأغانى الخمرية ، وغصت الكنائس بالمصلين ، وأخرج الناس الصدقات بمقادير لم يعهد مثلها من قبل ؛ ورد بعض رجال المصارف والتجار مكاسبهم غـــير المشروعة (١٣) . ودعا سفنرولا جميع سكان المدينة ، فقرائهم وأغنيائهم على السواء ، أن يتجنبوا البطالة ، والترف ، وأن يجدوا فى أعمالهم ، وأن يجعلوا حياتهم قدوة حسنة لغيرهم ، وقال فى ذلك : « يجب أن تبـــدأ إصلاحاتكم بشئونه

الروح ؛ . وأن تضعوا مغانمكم الدنيوية فى خدمة المصالح الأخلاقية والدينية التى هى أساس هذه المغانم ؛ وإذا كنتم قد سمعتم « أن الدول لاتحكم بالصلوات والأدعية » فاذكروا أن هذا هو حكم الطغاة المستبدين ، . . . وهو حكم لا يعمل لحرية المدينة بل يعمل لظلمها ؛ فإذا شئتم حكماً صالحاً ، وجب عليكم أن تردوا هذا الحكم إلى الله »(١٤) . وطلب إلى فلورنس أن تعتقد أن لحكومتها ملكا لا تراه العين — هو المسيح نفسه ؛ وتنبأ بأن هذه الحكومة الدينية ستؤدى إلى « المدينة الفاضلة » . وقال « أى فلورنس ! وإذن ستكونين غنية بثروتك الروحية والزمنية ، وستفوزين بإصلاح رومة ، وإيطاليا ، وجميع الأقطار ، وستبسطين جناحى عظمتك على العالم كله »(١٥). والحق أن فلورنس لم تسعد فى يوم ما قبل ذلك الوقت كما سعدت فى تلك الأيام التى كانت لحظة ساطعة فى تاريخ الفضيلة القلق المضطرب .

لكن الطبيعة البشرية لا تتغير ، فالناس ليسوا فضلاء بفطرتهم ، والنظام الاجتماعى إنما يحافظ على كيانه المزعزع وسط التنازع الخفى والعلنى القائم بين النفوس والأسر ، والطبقات ، والعناصر ، والعقائد . وكان فى المجتمع الفلورنسى عنصر قوى شديد الميل إلى الحانات ، والمواخير ، وأندية القمار ينفسون بها عن غرائزهم ، أويتخذونها وسيلة إلى الكسب ؛ وثارت ثائرة أسر الباتسيين ، والزيليين ، والكيونيين ، والفرع الأصغر من الميديتشيين وغيرهم من الأعيان الذين أخرجوا پيرو ، حين رأوا أزمة الحكومة تقع فى يدى راهب ؛ وكانت بقية من حزب پيرو لا تزال قائمة تتحين الفرص التى تستطيع بها العودة إلى الحكم وتستعيد بها الثراء . كذلك كان الرهبان الفرنسيس يعملون بكل ما أوتوا من حماسة دينية ضد سفنرولا الدمنيكى ، كما كانت عصبة صغيرة العدد من المتسككين تصب اللعنات على الطائفتين . واجتمعت هذه الطوائف المختلفة من أعداء النظام الجديد فى تجريح مؤيديه ووصفهم بالبياكيين Piagnoni (لأن الكثيرين منهم كانوا يبكون إذا سمعوا

عظات سفنرولا وذوى الرقاب الملتوية Collitorti ، والمنافقين Stopiccioni ومن يلوكون الصلوات Masticapternostri ؛ وكان الذين يلقبون بهذه الألقاب يسمون أعداءهم الكلاب الكلبة Arrabiati لشدة عداء هؤلاء لهم ؛ وأفلحت طائفة الأربياتى (الكلاب الكلبة) فى انتخاب مرشحها فلبو كوربتسى Filippo Corbizzi حاملا لشعار الدولة فى بداية عام ١٤٩٦ ، فلما تم له ذلك عقد فى قصر ڤيتشيو مجلساً من الكهنوت ؛ واستدعى سفنرولا للمثول أمامه ، واتهمه بالتورط فى نشاط سياسى لايليق بالرهبان ، وانضم إليه فى هذه التهمة عدد من رجال الدين من بينهم راهب دمنيكى من طائفة سفنرولا نفسه . وكان جواب سفنرولا : الآن قد حقت كلمات الله : (لقد حاربنى أبناء أمى) . . . ليس الاهتمام بشئون هذا العالم ... جريمة يتهم بها راهب إلا إذا خاض فيها دون أن يكون له غرض أسمى ، ولم يكن يسعى لنصرة قضية الدين »(١٦) ، وطالبوه بأن يصرح هل كانت عظاته موحى بها من عند الله ، ولكنه أبى أن يجيب عن هذا السؤال ، وعاد إلى صومعته وهو أشد حزناً مما كان .

ولعله كان يستطيع التغلب على أعدائه لو أن الظروف الخارجية كانت فى صالحه . لكنها لم تكن ؛ ذلك أن الفلورنسيين الذين يمتدحون الحرية كانو غاضبين أشد الغضب على پيزا لأنهم يطالبون بها ؛ وحتى سفنرولا نفسه لم يجرؤ على الدفاع عن المدينة الثائرة ، وعوقب قس من قساوسة الكنيسة عقاباً صارماً على يد مجلس للسيادة مؤلف من البا كيون لأنه صرح بأن من حق أهل پيزا أيضاً أن يكونوا أحراراً . ووعد سفنرولا بأن يرد پيزا إلى فلورنس ، واندفع فادعى أن پيزا فى قبضة يده ، ولكنه كان ، كما وصفه مكيڤلى ساخراً ، نبياً لا جند له . ودعمت پيزا استقلالها بعد أن طرد شارل الثامن من إيطاليا وذلك بتحالفها مع ميلان والبندقية ، وأسف الفلورنسيون لأن سفنرولا قد ربط نجمهم بنجم شارل الآفل ، ولأنهم دون غيرهم

لم يشتركوا فى ذلك العمل المجيد وهو طرد الفرنسيين من إيطاليا(١٧) . وكان القائدان الفرنسيان للحصنين الفلورنسيين ، وهما حصنا سردسانا وپيترا سانتا Pietra Santa قد باعا أحدهما إلى چنوى ، والآخر إلى لوكا : وقامت حركات تطالب بالتحرر فى مونتى پلتشيانو Montepulciano وأرتسو Arezzo ، وڤلتيرا Volterra وغيرها من المدائن التابعة لفلورنس اضطربت لها أنحاؤها ؛ ولاح أن المدينة التى كانت من قبل قوية مزهوة قد أوشكت أن تخسر ممتلكاتها الخارجة كلها تقريباً ، وأن تخسر كذلك جميع منافذها التجارية القائمة على نهر الآرنو ، والبحر الأدرياوى ، وعلى الطرق المؤدية إلى ميلان وروما . وكان لهذا أسوأ الأثر فى التجارة ، وقل إيراد الضرائب ، وحاول المجلس أن يحصل على المال الذى تتطلبه الحرب ضد پيزا بقروض جبرية من أغنياء المواطنين ، وعرض عليهم فى مقابل هذه القروض سندات حكومية ، فلما أن لاحت أمارات الإفلاس انخفضت قيمة هذه السندات إلى ثمانين فى المائة ، ثم إلى خمسين ، فإلى عشرة فى المائة من قيمتها الاسمية. وأقفرت خزانة الدولة فى عام ١٤٩٦ . وحذت الحكومة حذو لورندسو فاقترضت المال من رصيد أؤتمنت عليـــه الدولة لتقديم البائنات للعرائس الفقيرات . وفشت الرشوة هى والفساد والعجز وضربت أطنابها فى إدارة الأموال الحكومية سواء كان مديروها هم **الكلاب الكلبة أو الباكين** . واختير فرانتشسكو ڤالورى حاملا لشعار الدولة (يناير ١٤٩٧) بأغلبية من الباكين فزادت الكلاب الكلبة جنوناً على جنونها بأن حرمت عليها جميع الوظائف الكبرى ومنعت من عضوية المجلس إذا كان أفرادها ممن تهربوا من أداء الضرائب ، ولم يسمح لغير الباكين بالخطابة فى المجلس ، وأخرج من فلورنس كل راهب فرنسيسى يرفع عقيرته بالخطابة ضد سڤنرولا .

وحدث فى خلال عام ١٤٩٦ أن ظل المطر ينهمر فى كل يوم تقريباً مدة أحد عشر شهراً وأتلف المحصولات فى الأراضى الضيقة الرقعة الواقعة فى

مؤخر المدينة ؛ وبلغ من شدة القحط أن كان الناس يسقطون موتى من الجوع على قارعة الطريق . وافتتحت الحكومة محطات للإغاثة لمد الفقراء بالحبوب ، فكانت النساء يتساقطن موتى من شـدة الزحام على طلبها . وأخذ حزب آل ميديتشي يدبر المؤامرات لعودة پيرو ؛ وعرفت أسماء خمسة من زعمائهم وحكم عليهم بالإعدام (١٤٩٧) ؛ ومنعوا من استئناف الحكم إلى المجلس وهو الحق الذى يضمنه لهم الدستور ، وأعدموا ولما يمض على صدور الحكم إلا ساعات قليلة ؛ وأخذ كثيرون من الفلورنسيين يوازنون بين ما هو منتشر فى الحكم الجمهورى من تحزب ، وعنف ، وقسوة ، وبين ما كان يسود عهد لورندسو من نظام وأمن وسلام . وتكررت مظاهرات الجموع الغاضبة المعادية أمام دير سفنرولا ؛ فكان الكلاب الكلابية والباكونه يتراشقون بالحجارة فى الشارع ؛ ولما أن شرع الراهب يلقى موعظته فى يوم الصعود من عام ١٤٩٧ قاطعه جماعة من الغوغاء وحاول أعداؤه فى أثناء الشغب أن يقبضوا عليه ولكن أصدقاءه ردوهم على أعقابهم . وعرض حامل الأختام على مجلس السيادة أن ينفى سفنرولا من المدينة لعل ذلك يسكن من غضب الأهلين ، ولكن الاقتراح رفض بأغلبية صوت واحد ؛ وكان سفنرولا فى هذه العاصفة التى انهارت فيها أحلامه انهياراً مريراً يواجه ويتحدى أعظم قوة فى إيطاليا .

الفصل الثالث

سفنرولا الشهيد

لم يضطرب البابا اسكندر السادس اضطراباً شديداً بسبب ما وجهه سفنرولا من نقد لرجال الدين أو لأخلاق أهل رومة . ذلك أنه سمع مثل هذا النقد من قبل ؛ فقد ظل مئات من رجال الكنيسة قروناً طوالا يشكون من أن القساوسة يحيون حياة تنافى الفضيلة ، ومن أن البابوات يحبون المال والسلطان حباً لا يليق بخلفاء المسيح(١٨) . وكان البابا اسكندر سهلا رضى الطباع ، لا يسوؤه النقد الهين ما دام يحس بأنه آمن فى الكرسى الرسولى . أما الذى كان يسوؤه من سفنرولا فهو آراء هذا الراهب السياسية ؛ ولسنا نعنى بهذه الآراء السياسية ما فى الدستور الجديد من نزعة شبه دمقراطية . كذلك لم يكن البابا يهتم اهتماماً خاصاً بالميديتشيين ، ولعله كان يؤثر أن تقوم فى فلورنس جمهورية ضعيفة عن أن تكون فيها حكومة مستبدة قوية . كذلك كان يخشى أن يغزو الفرنسيون البلاد مرة أخرى ؛ فقد اشترك من قبل فى تكوين عصبة من الدول الإيطالية تعمل على طرد شارل الثامن من إيطاليا ، وتحبط أى هجوم ثان يقوم به الفرنسيون ؛ ولم يكن يطيق استمساك فلورنس بتحالفها مع فرنسا ، ويرى أن سفنرولا هو القوة الخفية التى توجه سياسة المدينة هذه الوجهة ، ويرتاب فى أنه يراسل فى السر الحكومة الفرنسية . وقد كتب سفنرولا فى واقع الأمر ثلاث رسائل يؤيد فيها ما اقترحه الكردنال جوليانا دلا روفيرى Guiliano della Rovere من أن يعقد الملك مجلساً عاماً من رجال الدين والحكم يصلح الكنيسة ، ويخلع الإسكندر لأنه «كافر وزنديق»(١٩) . وحرض الكردنال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza ممثل ميلان فى البلاط البابوى ، البابا على أن

يضع حداً لخطب الراهب ونفوذه ؛ فكتب الإسكندر فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليه عام ١٤٩٥ رسالة موجزة إلى سفنرولا قال فيها :

إلى ابننا المحبوب نهدى تحياتنا وبركتنا الرسولية . لقد سمعنا أنك أشد العاملين فى كرمة الرب غيرة ، فابتهجنا لذلك أشد الابتهاج وحمدنا الله العلى القدير على هذا . وسمعنا كذلك ما تؤكده من أن تنبؤاتك لا تصدر منك بل من الله(*) . ومن أجل هذا نرغب فى أن نتحدث إليك فى هذه الأمور كما يقضى علينا بذلك قيامنا على رعاية أبناء هذا الدين ؛ حتى إذا ما زدنا بهذه الطريقة علما بإرادة الله كنا أقدر على أداء واجبنا ؛ ولهذا نأمرك بما لنا عليك من حق الطاعة المقدسة التى أقسمت بالحرص عليها أن تعجل بالمثول بين يدينا ، وسوف تلقى منا الترحيب المشفوع بالحب والحنان(٢٠) .

وكانت هذه الرسالة نصراً عظيما لأعداء سفنرولا ، لأنها وضعته فى مأزق لا يسعه معه إلا أن يختم حياته بوصفه مصلحا أو أن يعصى أمر البابا علناً . وخشى سفنرولا ألا يستطيع العودة إلى فلورنس إذا ألقى بنفسه فى قبضة البابا ؛ ولربما قضى بقية أيامه فى جب سانت أنجيلو Sant' Angelo ؛ وإذا لم يعد فإن أنصاره سيقضى عليهم لا محالة . لهذا عمل بنصيحتهم فرد على الإسكندر قائلا إن مرضه الشديد يحول بينه وبين القدوم إلى رومة . وتكشفت بواعث البابا السياسية إلى هذه الدعوة حين كتب إلى مجلس السيادة فى فلورنس فى الثامن من سبتمبر يحتج على استمرار التحالف بين فلورنس وفرنسا ، وينبه الفلورنسيين إلى أنهم لا يليق بهم أن يوجه إليهم اللوم بأنهم دون سائر الإيطاليين يتحالفون مع أعداء إيطاليا ؛ وأمر سفنرولا فى الوقت عينه أن يمتنع عن الخطابة ، وأن يخضع لسلطان الوكيل العام للرهبان الدمنيك فى لمباردى ، وأن يرحل إلى أى مكان يأمره هذا الوكيل بالرحيل إليه .

(*) وكانت الكنيسة قد أعلنت أن هذا الادعاء يعد خروجاً على الدين ، وذلك لكى تقف فى وجه المتنبئين الكذابين .

ورد عليه سڤنرولا (فى التاسع والعشرين من سبتمبر) بأن أتباعه لا يريدون أن يخضعوا إلى الوكيل العام للدمنيك : ولكنه فى الوقت عينه سيمتنع عن الخطابة . فرد عليه الإسكندر مرة أخرى رداً يدل على رغبته فى التوفيق والمصالحة (١٦ أكتوبر) ، وأعاد فى هذا الرد أمره بالامتناع عن الخطابة ، وعبر عن أمله فى أن يجىء سڤنرولا إلى رومة حين تسمح له صحته بالمجىء إليها لكى يستقبل منها « بروح البهجة والأخوة »(٢١) ، ثم ترك الإسكندر الأمر عند هذا الحد مدة عام .

وكان حزب سڤنرولا فى هذه الأثناء قد استرد لنفسه السلطان فى المجلس وفى مجلس السيادة ، وزجا مبعوثو حكومة فلورنس فى رومة البابا أن يلغى أمره القاضى بمنع الراهب من الخطابة ، قائلين أن فلورنس فى حاجة إلى تأثيره القوى أيام الصوم الكبير . ويبدو أن الإسكندر أجابهم إجابة شفوية إلى ما طلبوا ، وعاد سڤنرولا فى السابع عشر من فبراير سنة ١٤٩٦ إلى الخطابة فى الكنيسة الكبرى . وعهد الإسكندر حوالى ذلك الوقت إلى أحد الأساقفة الدمنيكيين المتبحرين فى العلم أن يفحص ما نشر من مواعظ سڤنرولا ليتبين ما فيها من خروج على الدين . وكتب الأسقف فى تقريره يقول : « أيها الأب الأقدس ؛ إن هذا الراهب لا ينطق بشىء يتعارض مع الحكمة أو الشرف ؛ فهو يتحدث عن بيع المناصب الدينية وعن فساد القساوسة ؛ وهو إن شئت الحقيقة شائع شيوعاً كبيراً ؛ وهو يحترم عقائد الكنيسة وسلطانها ؛ وأفضّل من أجل هذا أن أتخذه لى صديقاً — ولو تطلب هذا أن تعرض عليه ثياب الكردنال الأرجوانية » . ولم يفارق الإسكندر ظرفه فبعث إلى فلورنس راهباً دمنيكياً يعرض على سڤنرولا القلنسوة الحمراء ؛ ولم يشعر الراهب بأن فى هذا تكريماً له بل كان وقعه عليه أليماً ، لأنه لم ير فيه إلا مثلاً آخر من شراء المناصب . فقال لمبعوث الإسكندر « عليك أن تأتى إلى عظتى التالية تعرف ردى على رومة »(٢٣) .

وكانت عظته الأولى فى ذلك العام إيذاناً ببدء النزاع مع البابا ، وكان هذا النزاع حادثاً عظيم الخطر فى تاريخ فلورنس ؛ وتاق نصف المدينة المهتاجة إلى سماعه ، ولم تتسع الكتدرائية على رحبها لكل من أرادوا الدخول ، وإن كانوا قد ازدحموا فى داخلها حتى لم يستطع أحد منهم حراكا . وأحاطت بالرئيس جماعة من أصدقائه المسلحين حتى أوصلته إلى الكنيسة . وبدأ عظته بأن شرح سبب انقطاعه الطويل عن المنبر ، وأكد ولاءه التام لتعاليم الكنيسة ، لكنه أتبع ذلك بتحدى البابا تحدياً جريئاً فقال :

إن الرئيس لايستطيع أن يصدر إلى أمراً أياً كان يتعارض مع القواعد التى تسير عليها طائفتى ، ولايستطيع البابا أن يصدر أمرا ما يتعارض مع مقتضيات البر أو أوامر الإنجيل ؛ ولست أعتقد أن البابا سيحرص يوماً ما على أن يفعل هذا ؛ فإن فعل فسأقول له : « إنك الآن لست براع ، ولست أنت كنيسة رومة ، إنك مخطئ » . . . وإذا تبين بوضوح أن أوامر الرؤساء تتعارض مع أوامر الله ، وبخاصة إذا تعارضت مع قواعد البر والخير ، فما من أحد من الناس فى هذه الحال ملزم بإطاعتها . . . . إذا ما تبينت بوضوح أن رحيلى عن مدينة ما سيؤدى إلى هلاك أهلها الروحى والزمنى ، فإنى لن أطيع إنساناً على ظهر الأرض يأمرنى بالرحيل عنها . . . لأنى إن أطعته عصيت أومر الله(٢٤) .

وندد فى عظته التى ألقاها فى يوم الأحد الثانى من آحاد الصوم الكبير بأخلاق عاصمة العالم المسيحية بأقسى الألفاظ فقال : « إن ألف عاهر ، وعشرة آلاف عاهر ، وأربعة عشر ألف عاهر عدد قليل لايكفى رومة لأن جميع من فيها من رجال ونساء فى العهر سواء »(٢٥) . وانتشرت هذه العظات فى طول أوربا وعرضها عن طريق الاختراع الجديد العجيب ونعنى به المطبعة ، وكان الناس يقرأونها فى كل مكان حتى سلطان تركيا نفسه . وأثارت عاصفة من المنشورات والكتيبات فى داخل فلورنس وخارجها ،

منها ما اتهم الراهب بالخروج على الدين والنظام ومنها ما دافع عنه ووصفه بأنه نبي وقديس .

وأخذ الإسكندر يبحث عن وسيلة غير مباشرة يتقى بها الحرب العلنية . ومن أجل هذا أمر فى شهر نوفمبر من عام ١٤٩٦ أن توحد جميع الأديرة الدمنيكية التسكانية — لتؤلف مجموعة تسكانية — رومانية جديدة توضع تحت سلطة پادر چياكومودا تشيتشيليا (الصقلى) Padre Giacomo de Cicilia . وكان پادر چياكومو هذا ممن يعطفون على سڤنرولا ، ولكنه فى أغلب الظن لايمانع فى نقل الراهب إلى بيئة أخرى إذا أشار عليه البابا بذلك . ورفض سڤنرولا أن يطيع أمر التوحيد ، وعرض الأمر على الشعب برمته فى نشرة سماها : « دفاع من إخوان سان ماركو » . وجاء فى هذه النشرة : « إن هذا الاتحاد مستحيل ، وغير معقول ، ومضر ، ولايمكن إرغام إخوان سان ماركو على قبوله ، لأن الرؤساء لا يحق لهم أن يصدروا أوامر تتعارض مع القواعد التى تسير عليها الطائفة ، أوتتعارض مع قانون الخير العام أوسلامة النفوس »[٢٦] . وإذ نظرنا إلى الأمر من الناحية الرسمية فإن جميع من يؤمون الأديرة يخضعون خضوعاً مباشراً للبابوات ؛ ومن حق البابا أن يضم هؤلاء كلهم ويوحد بينهم رغم إرادتهم ؛ بل إن سڤنرولا نفسه قد وافق فى عام ١٤٩٣ على أمر أصدره الإسكندر بضم جماعة الدمنيكيين فى دير سانت كترين بمدينة پيزا إلى جماعة سڤنرولا فى دير سان ماركو الذى يرأسه[٢٧] على أن الإسكندر لم يتخذ إجراء عاجلا ، وظل سڤنرولا يخطب وأصدر إلى الجمهور سلسلة من الرسائل يدافع فيها عن تحديه للبابا .

ولما اقترب موعد الصوم الكبير من عام ١٤٩٧ أعد **الكهرب السكلية** عدتهم للاحتفال بالعيد بإقامة المهرجانات ، والمواكب ، والأغانى بجميع المظاهر التى كانت متبعة فى أيام الميديتشيين . وأراد مساعد سڤنرولا الأمين الراهب دمنيكو أن يخبط هذه الخطط ، فأمر الأطفال من أتباعه أن ينظموا هم

احتفالا يختلف عن الاحتفال السالف الذكر . فأخذ هؤلاء الأولاد والبنات في خلال الأسبوع السابق لأيام الصوم يطوفون بالمدينة في جماعات ، يدقون الأبواب ، ويرجون أو يطلبون في بعض الأحيان — أن يعطوا ما يسمونه « الأباطيل » أو الأشياء الملعونة (أناثيمازى Anathemase) — ويقصدون بها الصور التي يرون أنها بذيئة ، وأغاني الغرام ، وأقنعة أعياد المساخر وملابسها ، والشعر المستعار ، وملابس التنكر ، وأوراق اللعب ، والنرد ، والآلات الموسيقية ، ومستحضرات التجميل ، والكتب الخبيثة مثل *بتمرون أو صور جنتى مجيورى* . . . ولما حل اليوم الأخير من أيام المساخر وهو اليوم السابع من فبراير ، سار أشد الناس حماسة من أتباع سفنرولا في موكب رهيب وهم ينشدون الأناشيد خلف تمثال للطفل يسوع نحته دوناتلو يحمله أربعة أطفال في هيئة ملائكة إلى ميدان مجلس السيادة Piazza della Signoria . وكان قد أعد في ذلك الميدان من المواد القابلة للاشتعال هرم ضخم ارتفاعه ستون قدماً ومحيطه عند قاعدته مئتان وأربعون . وصفت على طبقات الهرم السبع أو ألقيت عليها جميع « الأباطيل » التي جمعت في خلال الأسبوع أو جيء بها وقتئذ لتحرق ، وكان منها مخطوطات وتحف فنية عظيمة القيمة ؛ وأشعلت النار في الكومة من أربع نقط ، ودقت أجراس قصر ڤيتشيو اتعلن هذا أول « حريق للأباطيل يقوم به أتباع سفنرولا(*) » .

ونقلت عظات الراهب في أيام الصوم ميدان الحرب إلى رومة ، ذلك أن الراهب ، وإن قبل المبدأ القائل بأن الكنيسة يجب أن يكون لها قسط تعتمد عليه من السلطة الزمنية ، قال إن ثروة الكنيسة هي سبب انحطاطها . ولم يكن هجومه عليها وقتئذ يقف عند حد :

« إن الأرض تسفك فيها أنهار الدماء ، ولكن القسس لا يعبئون بشيء من هذا ؛ بل إنهم ينشرون الموت الروحي بين الناس جميعاً بما يضربونه

(*) كان حرق الأباطيل بهذه الصورة من العادات القديمة التي يقوم بها الرهبان المبشرون .

لهم من المثل السيئة . لقد ابتعدوا عن الله ، فلا يعرفون من أسباب الفوى إلا أن يقضوا لياليهم مع العاهرات . . . وهم يقولون إن الله لا يعنى قط بشئون العالم ، وإن كل شيء يحدث فيه مصادفة واتفاقاً ، وهم لا يؤمنون بأن المسيح موجود فى العشاء الربانى . . . تعالى إلى أيتها الكنيسة السفيهة . . . إن الله يقول : لقد وهبتك ثياباً جميلة ، ولكنك اتخذتها أصناما ، وجعلت من الأدعية المقدسة زينة وغرورا ، وجعلت العشاء الربانى سلعة تباع وتشترى . لقد أصبحت فى شهوانيتك عاهراً مجردة من الحياة ، وأنت أحط من الحيوان ، إنك من الفظائع الممقوتة . لقد كنت يوماً ما تشعرين بالخجل من آثامك ، أما الآن فقد فارقك الحياء ؛ وكان من مسحوا من رجال الدين يسمون أبناءهم أبناء إخوتهم وأخواتهم ، أما الآن فهم يتحدثون صراحة عن أبنائهم(*) ... والآن أيتها الكنيسة الفاجرة لقد كشفت عن خبثك ورذائلك للعالم أجمع وبلغ خبث رائحتك عنان السماء(٢٨) .

وكان سفنرولا يتوقع أن يؤدى هذا الهجاء القاذع إلى حرمانه من حظيرة الدين ، وقد رحب فعلا بهذا الحرمان فقال :

يقول الكثيرون منكم إن قرار الحرمان سيصدر ... أما أنا فإنى أتوسل إليك يا الله أن يعجل بهذا القرار . . . . فليحمل هذا الحرمان إلىّ على سن حربة ، ولتفتحوا له الأبواب ! وسأرد عليه ، وإذا لم يذهلكم هذا الرد فقولوا فىّ ما شئتم . . . إنى لا أبغى منك يارب إلا صليبك ! فلأضطهد ؛ إنى أسألك هذه النعمة ؛ لا تمتنى فى فراشى ، بل دعنى أقدم لك دمى ، كما قدمت أنت دمك لى(٢٩) .

وأوقدت هذه الخطب النارية لهيب الحماسة فى كافة أنحاء إيطاليا ، وهرع الناس من أقصى مدائنها للاستماع إليها ، وجاء دوق فرارا متخفياً ،

(*) إشارة إلى قول البابا إسكندر السادس الصريح عن أبنائه .

وفاضت الجماهير إلى الشوارع من الكنيسة ، وكانت كل عبارة جامعة محكمة تنتقل ممن فى داخل الكنيسة إلى من فى خارجها . أما فى رومة فقد انقلب الناس على الراهب انقلاباً كاد يشمل جميع الأهلين وأخذوا يطالبون بإنزال العقاب به(٣٠) . وحدث فى إبريل من عام ١٤٩٧ أن سيطرت الكلاب الكلبة على المجلس وادعوا أن المدينة معرضة لخطر الطاعون ، فحرموا الخطابة تحريماً تاماً فى الكنائس بعد اليوم الخامس من شهر مايو . وانصاع الإسكندر إلى تحريض الكلبيين فوقع فى الثالث عشر من مايو قراراً بحرمان الراهب ، ولكنه أذاع فى الوقت عينه أنه مستعد لإلغاء هذا القرار إذا استجاب سفنرولا إلى أمره بالقدوم إلى رومة . وأصر الراهب على رفض الدعوة لأنه كان يخشى أن يزج به فى السجن ؛ ولكنه لزم الصمت ستة أشهر ؛ فلما حل عيد الميلاد أنشد فى سان ماركو نشيد القداس الأكبر(*) ، وقدم العشاء الربانى لرهبان ديره ، وسار على رأسهم فى موكب كبير حول الميدان . وروع كثيرون من الناس حين رأوا رجلا محزوماً يحتفل بالقداس ، ولكن الإسكندر لم يعترض على هذا العمل ، بل فعل عكس هذا إذ لمح بأنه مستعد للرجوع فى قرار الحرمان إذا انضمت فلورنس إلى الحلف الذى يقاوم عودة فرنسا لغزو إيطاليا(٣١) . لكن مجلس السيادة رفض هذا الاقتراح ظنا منه أن الفرنسيين قد ينتصرون فى هذا الغزو ، وفى الحادى عشر من فبراير عام ١٤٩٨ بلغ عصيان سفنرولا غايته ، فقد خطب فى كنيسة سان ماركو فوصف قرار الحرمان بأنه قرار ظالم باطل ، واتهم بالمروق من الدين كل من يؤيد صحته ، وانتهى الأمر بأن أصدر هو قراراً بالحرمان قال فيه :

ومن أجل هذا فلتحل اللعنة Anathema Sit على من يصدر أوامر تتعارض مع الخير . ولو أن هذا الأمر قد نطق به ملك من السماء ، بل

(*) وهو الذى تصحبه الموسيقى ، والطقوس ، والمواكب ، والبخور . (المترجم)

نطقت به مريم العذراء نفسها ، ونطق به جميع القديسين (وهو مسحيل، بلا ريب) لحلت عليهم اللعنة . . . وإذا ما نطق أى بابا بما يناقض هذا ، فليعلن حرمانه(٣٢) .

وقرأ سفنرولا صلاة القداس فى اليوم الذى قبل الصوم الكبير فى الميدان القائم أمام كنيسة سان ماركو ، وقدم العشاء الربانى لجمع غفير من الناس، ودعا الله جهرة بقوله : « اللهم إن كنت غير مخلص فى أعمالى ، أو إن كانت ألفاظى غير موحى بها منك فأمتنى فى هذه الساعة » ، ونظم سفنرولا فى عصر ذلك اليوم حرقاً ثانيا للإباطيل .

وأبلغ الإسكندر مجلس السيادة أنه سيصدر قراراً بحرمان المدينة إذا لم يستطع هذا المجلس إقناع سفنرولا بأن يكف عن الخطابة ؛ لكن المجلس أبى أن يسكته وإن كان فى ذلك الوقت شديد العداء له ، وآثر أن يحمل البابا وحده عبء هذا القرار ؛ هذا إلى أن الراهب البليغ قد يكون ذا نفع فى مقاومة البابا الذى كان فى ذلك الوقت ينظم الولايات البابوية تنظيما يجعل منها قوة عظيمة تقلق بال جيرانها . وواصل سفنرولا خطبه ، ولكنه قصرها على كنيسة الدير ؛ وكتب سفير فلورنس فى رومة يقول إن عداء رومة للبابا قد اشتد إلى حد يعرض حياة أهل كل فلورنسى فيها للخطر ، وإنه يخشى إذا نفذ البابا ما هدد به من الحرمان فإن جميع التجار الفلورنسيين فى رومة قد يلقى بهم فى السجون . ولم يسع مجلس السيادة إلا الخضوع ، وأمر سفنرولا أن يكف عن عظاته (١٧ مارس) . وأطاع الراهب الأمر ، ولكنه تنبأ بأن فلورنس ستحل بها أشد الكوارث ؛ وشغل الراهب دمنيكو منبر الدير بدله ، وجعل نفسه الناطق بلسان الراهب ؛ وكتب سفنرولا فى خلال ذلك إلى ملوك فرنسا ، وأسپانيا وألمانيا ، وبلاد المجر ، يرجوهم أن يدعوا إلى عقد مؤتمر عام لإصلاح الكنيسة وجاء فى رسالته :

لقد حان وقت الانتقام ؛ وقد أمرنى الله أن أكشف عن أسرار جديدة ،

وأن أظهر للعالم الأخطار التى تهدد سفينة القديس بطرس نتيجة لطول إهمالكم . إن الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومرذول من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ومع ذلك فإنكم لا تكتفون بالسكوت عن إصلاح مساوئها بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين فى هذه الرذائل التى تدنسها ؛ وقد غضب الله من هذا أشد الغضب ، وترك الكنيسة زمناً طويلا من غير راع ؛ . . ذلك بأنى بهذا أقرر . . أن الإسكندر هذا ليس بابا ، ولا يمكن أن يكون بابا ؛ لأنه يغض الطرف عن الخطيئة المهلكة خطيئة الاتجار بالمقدسات والمناصب الكهنوتية التى ابتاع بها كرسى البابوية ، وهو فى كل يوم يبيع المناصب الكنسية لصاحب أكبر عطاء ؛ وإذا غضضنا النظر عن آثامه الأخرى البادية للعيان ، فإنى أعلن على رءوس الأشهاد أنه ليس مسيحياً ولا يؤمن بالله(٣٣) .

وأضاف إلى ذلك قوله إنه إذا عقد الملوك مجلساً فإنه سيمثل أمامه ويبرهن على صحة هذه التهم جميعها . واعترض أحد عمال ميلان على إحدى هذه الرسائل وبعث بها إلى الإسكندر .

قام راهب فرنسيسى فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٤٩٨ وسلط أضواء المسرحية على نفسه بأن خطب فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقدس) يتحدى سفنرولا ويدعوه إلى التحكيم الإلهى بوساطة النار ؛ واتهم فى خطابه الراهب الدمنيكى بأنه خارج على الدين ، ومتنبئ كذاب ، وعرض أن يخوض النار إذا قبل سفنرولا أن يحذو حذوه ؛ وقال إنه يتوقع أن يحترق كلاهما ، ولكنه يرجو أن تنجو فلورنس بهذه التضحية من الاضطراب الذى أحدثه فيها دمنيكى مزهو يعصى أوامر البابا . ورفض سفنرولا هذا التحدى لكن دمنيكو قبله . واغتنم مجلس السيادة هذه الفرصة التى سنحت له لكى يندد بالراهب الذى أصبح فى زعمه زعيما مهرجاً أثار فى المدينة كثيراً من المتاعب . وارتضى الالتجاء إلى أساليب العصور الوسطى ،

وأعد العدة لكى يدخل النار الراهب چوليانو رنديلى Giuliano Rondinelli أحد الرهبان الفرنسيس والراهب دمنيكو دا بستشيا Domenico da Pescia فى الپيانسا دلا سنيوريا (ميدان مجلس السيادة) .

واحتشد فى اليوم المحدد جمهور كبير فى الميدان العظيم ليستمتع بالنظر إلى معجزة من المعجزات أو إلى عذاب يحل ببنى الإنسان ، واحتل النظارة كل نافذة وكل سقف يطل على هـــذا المنظر . وأعدت فى وسط الميدان كومتان متماثلتان من الخشب الممزوج بالقار ، والزيت ، والراتنج ، والبارود تعترضان طريقاً عرضه قدمان ، وتضمنان اشتعال لهب شديد . واتخذ الرهبان الفرنسيس موقفهم فى اللوجيا دى لاندسى Loggia dei Lanzi ، وأقبل الرهبان الدمنيك من الاتجاه المقابل لهم ؛ وكان الراهب دمنيكو يحمل قرباناً مقدساً ، بينما كان سڤنرولا يحمل الصليب . وشكا الفرنسيس من أن قلنسوة الراهب الدومنيكى الحمراء قد سحرها رئيس الدير حتى أضحت غير قابلة للاحتراق ؛ وأصروا على أن يخلعها ؛ واحتج الراهب الدومنيكى على هذا الطلب ولكن الجماهير ألحت عليه بالامتثال ففعل . ثم طلب إليه الفرنسيس أن يخلع أثواباً أخرى ظنوا أنها هى أيضاً قد تكون مسحورة ؛ وارتضى دمنيكو هذا ، وسار إلى مجلس السيادة واستبدل بثيابه ثياب راهب آخر . وألح الفرنسيس مرة أخرى أن يحرم عليه الاقتراب من سڤنرولا ، لئلا يعود إلى التأثر بسحره ؛ وارتضى دمنيكو أن يحيط به الرهبان الفرنسيس ، وعارضوا فى أن يخوض النار وهو يحمل الصليب أو القربان المقدس ، فأعطاهم الصليب ولكنه أبى أن يعطيهم القربان ، وأعقبت هذا مناقشة فقهية بين سڤنرولا والرهبان الفرنسيس خلاصتها هل يحترق المسيح مع ظاهر القربان المقدس أو لا يحترق معه . وظل البطل الفرنسيسى فى خلال هذه المدة فى القصر برجو مجلس السيادة أن ينقذه بوسيلة ما ؛ وأطال الرهبان الجدل حتى أقبل الليل وخيم الظلام ، ثم أعلنوا أن التحكيم الإلهى ان يحدث

وغضبت الجماهير لهذا الخداع الذى حرمهم رؤية الدم المسفوك ، وهاجموا القصر لكنهم صدوا ، وحاول بعض الكلاب الكلبة أن يعتقلوا سفنرولا ، ولكن حراسه دفعوهم عنه ، وعاد الدمنيك إلى سان ماركو وسط سخرية الجماهير وإن كان من الواضح أن الفرنسيس هم الذين كانوا السبب الأكبر فى هذا التأخير : وشكا الكثيرون من أن سفنرولا قد سمح بأن يمثله دمنيكو فى التحكيم الإلهى بل أن يواجهه بنفسه ، بعد أن أعلن أنه يتلقى الوحى من الله ، وأن الله سيحميه . وانتشرت هذه الأفكار فى المدينة ، ولم يكد ينقضى الليل حتى تنحى أتباع رئيس الدير عنه .

وكان اليوم التالى هو أحد السعف ، وفيه سارت الغوغاء من جماعة الكلاب الكلبة وغيرهم تريد مهاجمة دير سان ماركو ، وقتلوا فى طريقهم بعض الباكين من بينهم فرانتشسكو ڤالورى ؛ ولما أطلت زوجته من النافذة حين سمعت بصراخه رميت بسهم أرداها قتيلة ، ونهب بيته وحرق ، وقتل أحد أحفاده خنقاً ودق جرس سان ماركو يدعو الباكين إلى النجدة ، ولكنهم لم يلبوا النداء ، واستعد الرهبان للدفاع عن أنفسهم بالسيوف والهراوات ؛ وأمرهم سفنرولا بأن يضعوا أسلحتهم ولكن أوامره ذهبت أدراج الرياح ، ووقف هو نفسه أعزل أمام المحراب ينتظر الموت . واستبسل الرهبان فى الكفاح ، وأخذ الراهب إنريكو يضرب بسيفه وهو مبتهج ابتهاج غير رجال الدين ، ويصرخ عند كل ضربة صرخة مدوية قائلا : أنج شعبك يارب Salvum fuc populum tuum Domine . ولكن الجماهير الغاضبة كانت أكثر من أن يطيقها الرهبان ؛ وأقنعهم سفنرولا فى آخر الأمر أن يضعوا أسلحتهم . ولما أن جاء الأمر من مجلس السيادة باعتقاله هو ودمنيكو ، استسلم الرجلان ، وسيقا وسط الجماهير التى أخذت تسخر منهما ، وتضربهما بالأيدى ، وتركلهما بالأقدام ، وتبصق عليهما ، وأودعا زنزانتين فى قصر ڤيتشيو ، وضم الراهب سلڤسترو إلى السجينين فى اليوم الثانى .

وبعث مجلس السيادة إلى البابا اسكندر بأنباء التحكيم الإلهى والقبض على الرهبان ، ورجاه أن يعفو عما وقع على أحد رجال الدين من عنف ، وطلب إليه أن يأذن بتقديم المسجونين إلى المحاكمة ، وأن يعذبا إذا استدعى الأمر تعذيبهم . وطلب البابا أن يرسل الرهبان الثلاثة إلى زومة ليحاكمو أمام محكمة كنسية ؛ فرفض مجلس السيادة هذا الطلب ، ولم يسع البابا إلا أن يقنع بأن يشترك مندوبان بابويان فى محاكمة المتهمين(٣٤) . وكان مجلس السيادة يصر على إعدام سڤنرولا ، وذلك لاعتقاده أن حزبه سيبقى قائماً ما دام هو حياً وأن موته هو الذى يرأب الصدع الذى قسم المدينة والحكومة على نفسيهما حتى أصبح حلفها مع فرنسا عديم القيمة لا تخشاه أية دولة أجنبية ، وأضحت فلورنس بسبب ذلك مُعَششاً للمؤامرات الأجنبية فى الداخل ومعرضة للغزو من الخارج .

وجرى المحققون على الشريعة التى سنتها محكمة التفتيش فأخذوا يعذبون الرهبان الثلاثة عدة مرات بين اليوم التاسع من أبريل واليوم الثانى والعشرين من مايو . وانهار سلڤسترو على الفور ، ولم يتردد فى أن يجيب المحققين إلى كل ما رغبوا فيه حتى كانت اعترافاته عديمة القيمة بسبب الإفراط فى يسرها . أما دمنيكو فقد ظل يقاوم ؛ حتى النهاية وحتى بعد أن عذب عذاباً كاد يؤدى به إلى الموت ظل يجهر بأن سڤنرولا قديس لا تشوبه شائبة من خداع أو إثم . وتوترت أعصاب سڤنرولا وخارت قواه فلم يلبث أن انهار تحت ضغط التعذيب ، وأدلى أمام المحققين بكل ما أوحوا إليه به . فلما أفاق أنكر ما اعترف به ، فعذب وعاد إلى الخضوع . ولما تكرر عذابه للمرة الثالثة تحطمت روحه وأمضى اعترافاً مهوشاً بأنه لم يتلق وحياً إلهياً ، وأنه آثم فى كبريائه وأطماعه ، وأنه حث قوى أجنبية زمنية على أن تعقد مجلساً عاماً للكنيسة ، وأنه دبر مؤامرة لخلع البابا . وأدين الرهبان الثلاثة [بأنهم منشقون خارجون على الدين ، وأنهم أذاعوا أسرار الاعترافات وادعوا

أنها رؤى ونبوءات وأنهم أشاعوا الفرقة والاضطراب فى الدولة ؛ وحكم عليهم بالإعدام باتفاق الدولة والكنيسة وتفضل الإسكندر فبعث إليهم بالغفران .

وتفذت الجمهورية العاقة قاتلة أبيها فى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ حكم الإعدام فى منشئها ورفاقه . واقتيدوا حفاة مجردين من ثيابهم الكهنوتية إلى ميدان مجلس السيادة الذى حرقوا فيه « الأباطيل » مرتين ، واحتشدت جماهير كثيرة لتشاهد هذا المنظر كما احتشدت من قبل لتشاهد منظر التحكيم الإلهى ، ولكن الحكومة أمدتهم فى هذه المرة بحاجتهم من الطعام والشراب . وسأل أحد القساوسة سفنرولا « بأى روح تتحمل هذا الاستشهاد ؟ » فرد عليه بقوله : « ما أكثر ما تعذب الرب من أجلى ! » وقبل الصليب الذى كان معه ولم ينبس بعد ببنت شفة . وسار الرهبان بجنان ثابت ليلقوا مصيرهم المحتوم ، وكاد الطرب يستخف دمنيكو فأخذ ينشد تسبيحه الشكر لله الذى أنعم عليه بنعمة الاستشهاد . وشنق ثلاثتهم وتركوا معلقين ، وسمح للصبيان أن يرشقوهم بالحجارة وهم فى حشرجة الموت . وأوقدت تحتهم نار حامية أحالت جثتهم رماداً ؛ ثم ألقى الرماد فى نهر الأرنو لئلا يعبده الناس بوصفه بقايا القديسين . وجاء بعض الباكين يتحدون الإحراق بالنار فركعوا فى الميدان وأخذوا ينتحبون ويصلون ؛ وظلت الأزهار تنثر فى صباح اليوم التالى للثالث والعشرين من مايو فى كل عام حتى عام ١٧٠٣ فى البقعة التى سقطت فيها دماء الرهبان ساخنة . وترى اليوم لوحة فى أرض الميدان المرصوفة تشير إلى أشنع جريمة وقعت فى تاريخ فلورنس .

وبعد فقد كان سفنرولا هو العصور الوسطى بعثت حية فى عصر النهضة ، وكانت النهضة هى التى قضت عليه ، وكان يشهد انحلال إيطالية

الأخلاقى بفعل الثروة ، كما يشهد اضمحلال العقيدة الدينية ؛ ووقف مستبسلا ، متعصباً ، ولكنه وقف عبثاً ، فى وجه روح العصر المتشككة ، الشهوانية : لقد ورث الرجل ما كان يتصف به القديسون فى العصور الوسطى من غيره أخلاقية وسذاجة عقلية ، وبدا أنه لا مكان له فى عالم يسبح بحمد بلاد اليونان الوثنية التى عثر عليها من جديد . وأخفق الرجل فى هدفه وكان إخفاقه نتيجة قصور عقله وأنانيته التى نستطيع أن نغفرها له ، وإن كانت تضايقنا ؛ وكان يغالى فى استنارة عقله وفى كفايته ، ويستخف استخفاف السذج الطيبى القلوب بما تتطلبه مقاومة سلطان البابوية وغرائز الآدميين من قوة ليست له . ولقد روعته أخلاق الإسكندر ترويعا نستطيع أن ندرك سببه ، ولكنه كان عنيفاً فى اتهاماته عنيداً فى سياسته . لقد كان پروتستنتيا قبل أن يجىء لوثر ، ولكن پروتستنتيته لم يكن لها معنى إلا أنها الدعوة لإصلاح الكنيسة ؛ ولم يكن يشارك لوثر فى شىء من آرائه الدينية المخالفة لآراء الكنيسة القائمة ، ولكن ذكراه أصبحت قوة تملأ عقول البروتستنت ؛ ولذلك لقبه لوثر بالقديس وكان أثره فى الأدب ضئيلا لأن الأدب كان وقتئذ فى أيدى المتشككين والواقعيين أمثال مكيڤلى وجولتشياردينى **Oulcciardini** ، أما أثره فى الفن فكان عظيما إلى أبعد حد . وقد كتب الراهب بارتولوميو على صورته يقول : « صورة چيرولاما من أهل فرارا ، النبى المبعوث من عند الله » . وقد تحول بتيتشيلى من الوثنية إلى التقى والصلاح بتأثير مواعظ سڤنرولا ، وكثيراً ماكان ميكل أنجيلو يستمع إلى الراهب ويقرأ عظاته فى خشوع ، وكانت روح سڤنرولا هى التى حركت الفرشاة فى سقف معبد سستينى **Sistine** ورسمت وراء المحراب صورة برم الحساب .

أما عظمة سڤنرولا فترجع إلى ما بذله من الجهد لإحداث ثورة أخلاقية

فى فلورنس ، ولحث الناس على أن يكونوا أشرافاً ، صالحين ، عادلين ؛ ونحن نعرف أن هذه أشق الثورات كلها ، ولا ندهش لأن سفنرولا أخفق فيما أفلح فيه المسيح ، وهو أن يصلح قلة ضئيلة يرثى لها من الخلائق ؛ ولكننا نعرف أيضاً أن ثورة كهذه هى وحدها التى تؤدى إلى تقدم حق فى شئون الخلق ، وأن تقلبات التاريخ إذا قيست إليها كانت مناظر عارضة سريعة الزوال عديمة الأثر ، إن بدلت شيئاً فلن تبدل الإنسان ؛

الفصل الرابع

الجمهورية والميديتشيون

١٤٩٨ — ١٥٣٤

لم يخفف موت سفنرولا من الفوضى التى كادت تجعل البلاد بلا حكومة أيام سلطانه . ذلك أن الفترة القصيرة التى لم تكن تدوم إلا ثلاثة شهور ، وهى التى كان يقضيها أعضاء مجلس السيادة وحامل الأختام فى مناصبهم ، كانت تقضى على الاستمرار الواجب فى الهيئة التنفيذية ، وتبعث فيها قلقاً أشبه بقلق المحموم ، وتؤدى إلى الفساد وعدم الإحساس بالتبعة . وحاول المجلس فى عام ١٥٠٢ ، وكانت تسيطر عليه وقتئذ أقلية ظافرة من أصحاب المال ، أن يتغلب على بعض هذه الصعوبة بأن يختار حامل الشعار على أن يبقى فى منصبه طول حياته حتى يستطيع مواجهة البابوات الحكام الزمنيين على قدم المساواة ، وإن ظل مع ذلك خاضعاً لمجلس السيادة ومجالس الحكام ٥ وكان أول من حظى بهذا الشرف پيتروسدرينى ، وهو من أصدقاء الشعب الأثرياء ، وكان وطنياً أميناً . لم يؤت من قوة العقل والإرادة درجة كبرى تهدد فلورنس بالدكتاتورية . واستخدم مكيڤلى فيمن استخدمهم من المستشارين ، وساس البلاد بحكمة وراعى جانب الاقتصاد ، واستعان بأمواله الخاصة على العودة إلى مناصرة الفنون التى انقطع حبلها فى عهد سفنرولا . واستبدل مكيڤلى بتأييد منه بجنود فلورنس المرتزقة مجندين من أهلها ، اضطروا پيزا آخر الأمر (١٥٠٨) إلى قبول « الحماية » الفلورنسية مرة أخرى .

ولكن السياسة الخارجية التى اتبعتها الجمهورية أوقعت البلدة فى عام ١٥١٢ فى الكارثة التى تنبأ بها الإسكندر السادس . ذلك بأن فلورنس

أصرت على الاستمساك بحلفها مع فرنسا طوال المدة التى كان فيها « الحلف المقدس » المكون من البندقية ، وميلان ، وناپلى ، وروما يبذل الجهود تلو الجهود ليطهر إيطاليا من الغزاة الفرنسيين . فلما توجت جهود الحلف بالنصر ولى وجهه شطر فلورنس لينتقم منها وسير إليها جنوده لكى يستبدلوا الأرستقراطية الجمهورية بدكتاتورية ميديتشية . وقاومت فلورنس جنود الحلف ، وبذل مكيڤلى جهودا جبارة لتنظيم وسائل الدفاع عنها . واستولى الغزاة على پراتو Prato حصنها الأمامى ونهبوه ، وولى عساكر مكيڤلى الأدبار أمام جنود الحلف المرتزقين المدربين ؛ واستقال سدرينى حتى لا يطول سفك الدماء ، ودخل جوليانو ده ميديتشى ابن اورندسو فلورنس ، بعد أن نفح الحلف بعشرة آلاف دوقة (٢٥٠,٠٠٠ دولار) ، فى حماية الجنود الأسپانية والجرمانية ، والإيطالية ؛ وسرعان ما انضم إليه أخوه الكردنال چيوڤنى ؛ وألغى دستور سڤنرولا ، وأعيدت سيادة آل ميديتشى على فلورنس :

وسلك چيوڤنى وجوليانو مسلك الحكمة والاعتدال ، وارتضى الشعب هذا التغيير بعد أن أتخمه طول الاستثارة والاهتياج . ولما أن أصبح چيوڤنى هو البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، وتبين أن جوليانو أرق وأظرف من أن يكون حاكماً ناجحاً ، أسلم حكم فلورنس إلى ابن أخيه لورندسو ، ومات هذا الشاب الطموح بعد ست سنين من حكم الاستهتار ؛ وخلفه الكردنال جوليو ده ميديتشى Giulio de' Medici ، ابن جوليانو الذى قتل فى مؤامرة پاتسى Pazzi ، فأدار شئون فلورنس بكفاية ممتازة ؛ ولما أن أصبح هو البابا كلمنت السابع (١٥٢١) حكم المدينة وهو جالس على كرسى البابوية ؛ وانتهزت فلورنس فرصة الكوارث التى حلت به فطردت منها ممثليه (١٥٢٧) ، وظلت أربع سنين تستمع مرة أخرى بتجارب الحرية ؛ ولكن كلمنت خفف بالدپلوماسية وقع الهزيمة ، واستخدم جنود شارل

الخامس ليثأر لأقاربه المطرودين . وزحف جيش من الأسبان والجرمان على فلورنس (١٥٢٩) : وأعاد قصة عام ١٥١٢ ؛ وقاومت المدينة مقاومة الأبطال ولكنها لم تجدها نفعا ، وبدأ ألسندرو ده ميديتشى Aiessandro de Medici (١٥٣١) عهداً من الظلم ، والوحشية ، والفجور لم يسبق له مثيل فى سجلات أسرته ؛ ومضت بعد ذلك ثلاثة قرون قبل أن تذوق فلورنس طعم الحرية مرة أخرى :

obeikandl.com

الفصل الخامس

الفن فى عهد الجمهورية

إن عصر الاهتياج السياسى يكون فى العادة حافزاً قوياً للأدب ؛ وسندرس فيما بعد كاتبين من الطراز الأول — مكيڤلى وجوتسياردينى Guicciardini — كانا من كتاب تلك الفترة . لكن الدولة المشرفة على هاوية الإفلاس ، والتى لاتكاد تخرج من ثورة إلا إلى ثورة ، لا تكون صالحة لنماء الفنون — وهى أقل ما تكون صلاحاً لنماء العمارة بوجه خاص ؛ ومع هذا فقد وجد عدد من الرجال الأغنياء ، أوتوا من البراعة ما يستطيعون به أن يطفوا فوق الفيضان الجارف ، فظلوا يتحدون الحظ العاثر بإقامة القصور . من ذلك أن چيوڤنى فرانتشيسكو ، وأرسطوطيلى دا سنجلو Aristotele da Sangallo ، أقاما قصراً فخما لأسرة پندلفينى Pandolfini بناء على تصميم من عمل رفائيل . وخطط ميكل أنچيلو بين عامى ١٥٢٠ ، ١٥٢٤ غرفة مقدسات جديدة Nuova Sagrestia لكنيسة سان لورندسو بتكليف من الكرنال جوليو ده ميديتشى — تتكون من فناء مربع بسيط ، وقبة متواضعة يعرفها العالم كله بأنها موطن أجمل ما نحته ميكل أنچيلو وهو مقابر الميديتشيين .

وكان بين منافسى هذا الفنان الجبار المثال پيترو ترجيانو Pietro Torrigiano الذى كان يعمل معه فى حديقة التماثيل التى أنشأها لورندسو ، والذى جدع أنفه ليؤيد بذلك حجة له . وغضب لورندسو من هذا العمل العنيف غضباً اضطر ترجيانو من أجله أن يلجأ إلى رومة ويصبح جندياً فى خدمة سيزارى بورچيا ، وأظهر بسالة عظيمة فى كثير من المعارك ، واتخذ سبيله إلى إنجلترا ، وخطط فيها إحدى آيات الفن الإنجليزية وهى قبر

هنرى السابع فى دير وستمنستر (١٥١٩) . ونحت بعدئذ(٢) وهو يطوف فى أسپانيا طواف القلق المضطرب ، تمثالا جميلا للعذراء والطفل كلفه به دوق أركوس Arcos ، ولكن الدوق لم يكافئه عليه بما يستحق ، فحطم التمثال ، وانتقم منه الدوق بأن اتهمه لدى محكمة التفتيش بالمروق من الدين ، وحكم على ترجيانو بعقوبة شديدة ، ولكنه فوت على أعدائه غرضهم بأن أضرب عن الطعام حتى مات جوعا .

ولم تشهد فلورنس فى فترة من تاريخها مثل ذلك العدد الجم من الفنانين الذى شهدته فى عام ١٤٩٢ ؛ ولكن كثيرين منهم فروا منها بسبب ما كانت تموج به من اضطراب ، وخصوا بشهرتهم أماكن غيرها ؛ فذهب ليوناردو إلى ميلان ، وميكل أنچيلو إلى بولونيا ، وأندريا سانسوڤينو Andrea Sansovino إلى لشبونه واتخذ سانسوڤينو لقبه من جبل سان سوڤينو ، وأذاع شهرته إلى حد نسى معه الناس اسمه الحقيقى وهو أندريا دى دمنيكو كنتوتشى Andrea di Domenico Contucci . وكان أندريا ابن عامل فقير ولكنه أولع أشد الولع بالرسم وبعمل نماذج من الصلصال ، وأرسله رجل رحيم من أهل فلورنس إلى مرسم أنطونيو دل بولايولو ، وسرعان ما نضج الغلام فشاد فى كنيسة سانتو أسپريتو معبد القربان المقدس ، وصنع فيه تماثيل ونقوشا بارزة « بلغت من القوة والجودة » كما يقول ڤاسارى « درجة لايجد الإنسان معها أى عيب فيها » ، ثم وضع أمام المعبد دريئة مصبعة من البرنز بلغت من الجمال حداً لا يسع الإنسان معه إلا أن يحبس أنفاسه عند النظر إليها . ورجا چون الثانى ملك البرتغال لورنزو أن يبعث إليه بالفنان الشاب ؛ وذهب إليه أندريا وظل عنده تسع سنين يكدح فى النحت والعمارة . وعاوده الحنين إلى إيطاليا ، فعاد إلى فلورنس (١٥٠٠) ، ولكنه سرعان ما غادرها إلى چنوى ، ثم انتهى به المطاف إلى رومة ، وأنشأ فى كنيسة سانتا ماريا دل پوپولو قبرين من الرخام — للكردنالين اسفوردسا — وبسو دلا روفيرى Basso della Rovere نالا أعظم الثناء فى مدينة تزدحم وقتئذ (١٥٠٥ — ١٥٠٧) بالعباقرة ،

وأرسله ليو العاشر إلى لوريتو Loreto حيث زين بين عامى ١٥٢٣ و١٥٢٨ كنيسة سانتا ماريا بمجموعة من النقوش البارزة مستمدة من حياة العذراء ، وبلغت من الجمال حداً بدا معه الملك فى صورة **البشارة** كأنه « من السماء لا من الرخام » ، على حد قول ڤاسارى ، ثم آوى أندريا بعد قليل من ذلك الوقت إلى ضيعة قريبة من موطنه مونتى سان ساڤينو ، وعاش فيها عيشة الفلاح المجد حتى توفى فى عام ١٥٢٩ فى الثامنة والستين من عمره .

وكانت أسرة دلا ربيا dell Robbia فى هذه الأثناء تواصل العمل بأمانة ومهارة فى أشغال الصلصال المزجج ؛ وطال عمر أندريا دلا ربيا أكثر مما طال عمر عمه الذى بلغ خمسة وثمانين عاماً ، وأوتى بذلك من الوقت ما مكنه من أن يدرب على فنه ثلاثة من أبنائه هم چيوڤنى ، ولوكا ، وجرولو . وقد بلغت أشغال أندريا فى الصلصال المحروق من بريق اللون والرقة حداً يذهل معه زائر المتحف ، فيبهر عينه ويمسك قدمه فلا يستطيع التحرك من مكانه . وقد امتلأت حجرة فى البرجيلو Bargello بروائع من صنع يده ، وامتاز **مستشفى المبرئين** بالزخارف الهلالية التى زين بها صورة البشارة . ونافس چيوڤنى دلا ربيا أباه أندريا فى مهارته الممتازة التى يتبينها الإنسان فى البرجيلو واللوڤر ؛ وكاد آل دلا ربيا يقصرون جهودهم على الموضوعات الدينية مدى ثلاثة أجيال كاملة ، وكانوا من أشد أنصار سڤنرولا وأعظمهم تحمساً لآرائه ، وانضم ثلاثة من أبناء أندريا إلى **إخوان سان مارکو** يطلبون النجاة مع الراهب .

وكان الرسامون يحسون أعمق الإحساس بتأثير سڤنرولا ، وقد أخذ لورندسو ده كريدى Lorenzo de Credi فنه عن ڤيرتشيو Verrocchio ، وحاكى طراز ليوناردو زميله فى الدرس ، وأخذ رقة صوره الدينية من التقوى التى بعثها فيه بيان سڤنرولا ومصيره المفجع ، وقضى نصف عمره يعمل فى تصوير العذراء ؛ حتى لا يكاد يخلو مكان من هذه الصور ،

فنحن نراها فى رومة ، وفلورنس ، وتورين ، وأڤنيون ، وكليڤلند ؛ ووجوه هذه الصور غير متقنة ، وأثوابها فخمة ، ولربما كانت أحسنها كلها صور **البشارة** المحفوظة فى متحف أفيزى . ولما بلغ لورندسو الثانية والسبعين من العمر وأحس بأن الوقت قد حان للتحلى بمظهر القداسة ، ذهب ليعيش مع رهبان سانتا ماريا نوڤو ؛ ومات فى ذلك المكان بعد ست سنين من ذهابه إليه .

واتخذ پيرو دى كوزيمو Piero di Cosimo لقبه من معلمه كوزيمو روسلى Cosimo Rosselli لأن « من يدرب الكفايات ، ويزيد من سعادة الإنسان أب بحق لا يقل شأناً عن أبى الإنسان الذى ولده »(٣٥) . وأيقن كوزيمو أن تلميذه قد بزّه ؛ فلما استدعاه سكستس الرابع لزخرفة معبد سستينى صحب پيرو معه ؛ وهناك رسم پيرو صورة **هلاك جند فرعون فى البحر الأحمر** وسط مناظر طبيعية مكتئبة من الماء ، والصخر ، والسماء الملبدة بالغيوم . وقد خلف لنا صورتين عظيمتين كلتاهما فى متحف لاهاى وهما صورتا جوليانو دا سنجلو وفرانتشيسكو دا سنجلو . ووهب پيرو نفسه كلها للفن ، فقلما كان يعنى بالمجتمعات أو بالصداقة ؛ وكان يعشق الطبيعة والوحدة ، وينهمك فى الصور والمناظر التى يصورها . ومات الرجل وحيداً دون أن يعترف ، بعد أن أخذ عنه فنه تلميذان تفوقا على أستاذهما كما تفوق هو على أستاذه من قبل : نعنى بهما الراهب بارتوليو وأندريا دل سارتو Andrea del Sarto

واتخذ باتشيو دلا پورتا Baccio della Porta لقبه من باب سان پيرو الذى كان يعيش عنده ، فلما انضم إلى طائفة الرهبان سمى الأخ بارتوليو Fra Bartolommeo ؛ وبعد أن درس الفن مع كوزيمو روسلى ، وپيرو دى كوزيمو اتخذ لنفسه مرسما مع ماريتو البرتللى ، وشاركه فى رسم عدة صور ، وظل وثيق الصلة به ، صديقاً وفياً له ، حتى فرق بينهما الموت ؛

وكان بارتولميو شاباً متواضعاً ، حريصاً على طلب الفن ، ينطبع فيه كل تأثير ، ظل فترة من الزمن يسعى للحاق بليوناردو ، والوصول إلى بعض ما وصل إليه ؛ ولما جاء روفائيـــل إلى فلورنس درس معه باتشيو فن المنظور والطرق المثلى لمزج الألوان ؛ ثم زار روفائيل بعدئذ فى رومة ، ورسم معه صورة فخمة نبيلة هى **رأس القديس بطرس** ، ثم شغف حباً بطراز ميكل أنجيلو الفخم الرائع ، ولكنه كانت تعوزه الشدة الرهيبة التى يمتاز بها ذلك الغاضب ؛ ولما حاول بارتولميو ذلك العمل الضخم فقد وهو يحاول تكبير آرائه البسيطة ما كان فى صفاته هو من سحر وفتنة — ونعنى بتلك الصفات ما كان فى ألوانه من غنى وعمق وتظليل رقيق ، وما فى تواليفه من تناسب فخم رائع ، وما فى موضوعاته من تقوى وعاطفة :

وتأثر أشد التأثر بعظات سفنرولا ، وجاء إلى حرق الأباطيل بجميع ما صور من الأجسام العارية ، ولما هاجم أعداء الراهب دير سان ماركو (١٤٩٨) انضم إلى المدافعين عنه ، وأقسم فى أثناء ذلك الاشتباك أن ينضم إلى سلك الرهبان إذا نجا من الموت ؛ وبر بقسمه فدخل دير الرهبان الدمنيك فى پراتو Prato ، وظل خمس سنين ممتنعاً عن التصوير ، منهمكاً فى ممارسة الشعائر الدينية ؛ ولما انتقل إلى دير سان ماركو رضى أن يضم روائعه الفنية المرسومة بالألوان الزرقاء ، والحمراء ، والسوداء إلى مظلمات الراهب أنجيلكو الوردية : وصور فى مطعم هذا الدير صورتين إحداهما للعذراء والطفل ، والثانية ليوم الحساب ؛ كما صور فى طريقه المقنطر المسقوف صورة للقديس سبستيان ؛ ورسم فى صومعة سفنرولا صورة قوية للراهب متنكراً فى زى القديس الشهير بطرس ، وكانت صـــورة **القديس سبستيان** الصورة العارية الوحيدة التى صورها بعد الانضمام إلى سلك الرهبان ؛ وقد وضعت هذه الصورة أولا فى كنيسة سان ماركو ، ولكنها بلغت من الجمال حداً اعترفت معه بعض النساء بأنها بعثت فى نفوسهن

أفكاراً خبيثة ، فما كان من الراهب إلا أن باعها إلى رجل من آهل فلورنس أرسلها إلى ملك فرنسا . وظل الراهب بارتوليو يرسم الصور حتى عام ١٥١٧ حين شل المرض يديه فلم يقو على أن يمسك الفرشاة ، ثم مات فى تلك السنة وهو فى الخامسة والأربعين من عمره .

وكان منافسه الوحيد على مركز السيادة بين المصورين الإيطاليين فى عصره تلميذاً آخر من تلاميذ پيرو دى كوزيمو ، ذلك هو أندريا دمنيكو دانيولو دى فرانتشيسكو ڤينوتشى Andrea Domenico d'agnolo .di Francesco Vennuci المعروف لنا باسم أندريا دل سارتو Andrea del Sarto لأن أباه كان خياطاً . ونضج الرجل نضوجاً سريعاً كما ينضج معظم الفنانين فى عصر النهضة ، فقد بدأ تدريبه وهو فى السابعة من عمره . ودهش پيرو من براعة الشاب فى التصميم ، ولاحظ وهو فرحان جذل كيف كان أندريو فى أيام العطلة التى يغلق فيها المرسم يقضى وقته فى عمل صور فى الرسوم التمهيدية التى كان يصنعها ليوناردو وميكل أنچيلو لقاعة الخمسمائة فى قصر فيتشيو . ولما أن أصبح پيرو فى شيخوخته رجلا شاذاً غريب الأطوار ، اتخذ أندريا وفرانشيابجيو Franciabigio زميله فى الدرس مرسماً خاصاً بهما ، وظلا فترة من الزمن يعملان معاً . ويلوح أن أندريا بدأ حياته المستقلة بأن صور فى فناء كنيسة البشارة Annunziata (١٥٠٩) خمسة مناظر مأخوذة من حياة سان فلپوبنتسى San Filippo Benizzi ، وهو نبيل فلورنسى أنشأ طائفة الرهبان الخادمين لعبادة مريم العذراء خاصة . وتمتاز هذه المظلمات ، رغم ما أصابها من عوادى الزمان وتعرضها للجو ، ببراعة التنفيذ ، والتأليف ، ووضوح القصص ، ومزج الألوان المتناسقة القوية حتى أصبح هذا الفناء فى هذه الأيام كعبة يحج إليها المولعون بالفن إذا زاروا فلورنس . وقد اتخذ أندريا نموذجاً لإحدى صور النساء تلك المرأة التى أضحت زوجة له أثناء قيامه بهذه الرسوم — نعنى بها لكريدسيا دل

فيدى Luerezia del Fede وهى سليطة جميلة ظل وجهها الأسمر ، وشعرها الفاحم يراودان خيال الفنان إلى ما قبل وفاته .

وشرع أندريا وفرانتشيابجيو فى عام ١٥١٥ يعملان طائفة من المظلمات فى طرقات دير إخوة أسكالدسو Scalzo ، واختارا موضوعاً لها حياة القديس يوحنا المعمدان ؛ ولكن يد أندريا بلا ريب هى التى أظهرت خصائصها فى طائفة من الصور ؛ فقد رسم صور الأناث بكل ما فيها من كمال الشكل والتركيب . وتلقى فى عام ١٥١٨ دعوة من فرانسس الأول بالمجىء إلى فرنسا . فقبل دعوته ورسم صورة **العصفة** المعلقة فى متحف اللوفر ؛ غير أن زوجته التى تركها فى فلورنس رجته أن يعود ؛ وأذن له الملك بالعودة بعد أن تعهد بالرجوع إلى فرنسا ، وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ليبتاع له تحفاً فنية من إيطاليا . لكن أندريا أنفق مال الملك فى بناء بيت له ولم يعد قط إلى فرنسا . ولما أوشك على الإفلاس رغم هذا عاد إلى التصوير ورسم لطرقات كنيسة البشارة آية من آياته الفنية يصفها ڤاسارى بأنها : « بتصميمها ، وظرفها ، وبراعة ألوانها ، وحيويتها ، ونقوشها ، لا تترك مجالا للشك فى أنه يسمو بمراحل طويلة على جميع من سبقوه » — ومنهم ليوناردو وروفائل[٢٦] . وقد تلفت هذه الصورة ، صورة عذراء الكيس ؛ Madonno del socco — وهو اسم سخيف سميت به لأنها تصور مريم ويوسف متكئين على كيس — ولم تعد تكشف عما كانت عليه من روعة الألوان وبهجتها ؛ ولكن تركيبها الذى يبلغ حد الكمال ، وألوانها الرقيقة المتناسقة ، وتمثيلها للأسرة تمثيلا هادئاً — بما فيها يوسف ، وقد أصبح فجأة قادراً على القراءة ، فأخذ يقرأ فى كتاب — كل هذا يضعها فى مصاف أعظم الصور فى عصر النهضة .

وصور أندريا فى مطعم دير سلفى Selvi صورة **العشاء الأخير** « ١٥٢٦) يتحدى بها ليوناردو ، واختار لها نفس الساعة ونفس الموضوع :

« سيخونني واحد منكم » . وكان أندريا أكثر جرأة من ليورنادو ، إذ أكمل في صورته وجه المسيح ؛ ولكنه هو أيضاً قصر عن بلوغ العمق الروحي ، والرقة والفطنة التي نعهدها في عيسى ، غير أن صور الرسل واضحة تتميز كل منها عن الأخرى تميزاً يثير الدهشة ، والمعاني التي تبرزها واضحة ؛ والتلوين غزير ، هادئ ، كامل ؛ والصورة حين ينظر إليها الإنسان من مدخل قاعة الطعام تخدعه فلا يستطيع أن يحاجز نفسه عن الظن بأنها تمثل منظراً من الأحياء .

وقد بقي موضوع **الأم العذراء** الموضوع المحبب لأندريا ، كما بقي الموضوع المحبب للكثرة الغالبة من فناني عصر النهضة في إيطاليا ؛ فأخذ يصورها المرة بعد المرة في دراساته للأسرة المقدسة ، كما نشهد ذلك في معرض آل بورچيا في رومة ، أو في متحف نيويورك ، وقد صورها في إحدى الكنوز المحفوظة في معرض أفنزي في صورة **عذراء المنتقمات** (*) Madonna del Arpie ؛ وتعد هذه الصورة أجمل صورة لعذارى لكريدسيا ، وصورة **الطفل** هي أجمل ما أخرجه الفن الإيطالي . وتوجد في معرض پتي Pitti على الضفة الأخرى لنهر الآرنو صورة **صعود العذراء** يظهر فيها الرسل ورجال الدين ينظرون في ذهول وخشوع إلى الملائكة الصغار وهم يرفعون العذراء — وهي هنا أيضاً لكريدسبا — إلى السماء ؛ وهكذا تتم ملحمة العذراء بهذه الصورة المتلألئة التي رسمها أندريا .

وقلما نجد شيئاً من السمو في صور أندريا دل سارتو كما لا نجد فيها جلال ميكل أنچيلو ، أو التدرج غير المحس الذي لا يسبر غوره ، والذي نجده في ليوناردو ، أو كمال الصقل الذي نراه في رفائيل ، أو مدى القوة التي نشهدها في الفنانين البنادقة العظام . غير أنه هو وحده الذي يضارع أولئك البنادقة في جمال اللون ويضارع كريچيو Correggio في الرشاقة ، وإن

(*) سميت كذلك لوجود صورة المنتقمات ممثلة على قاعدتها .